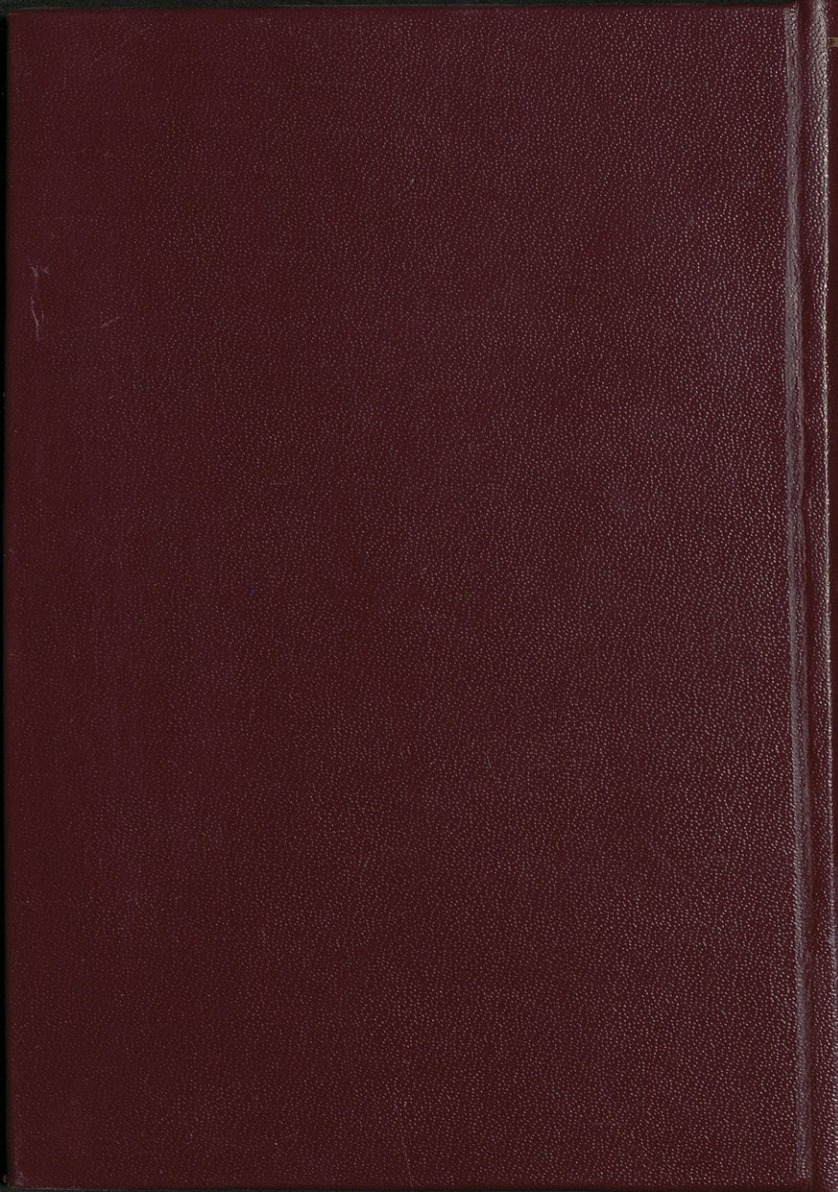
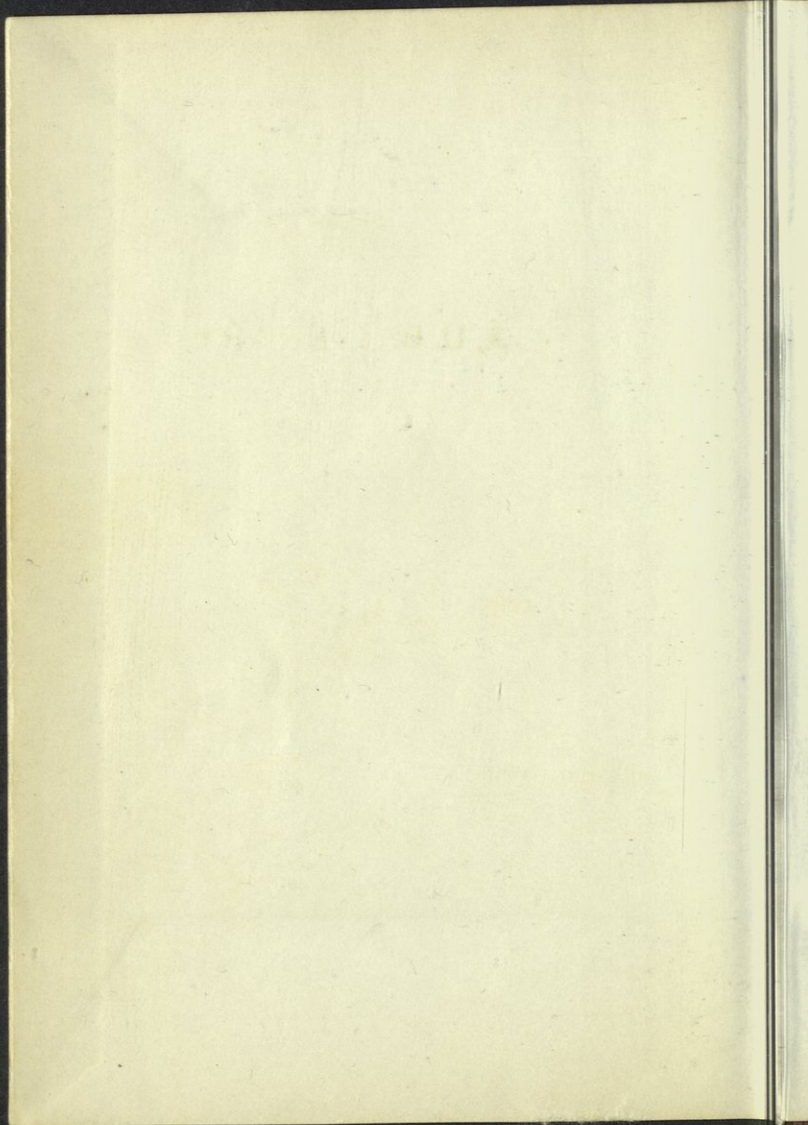
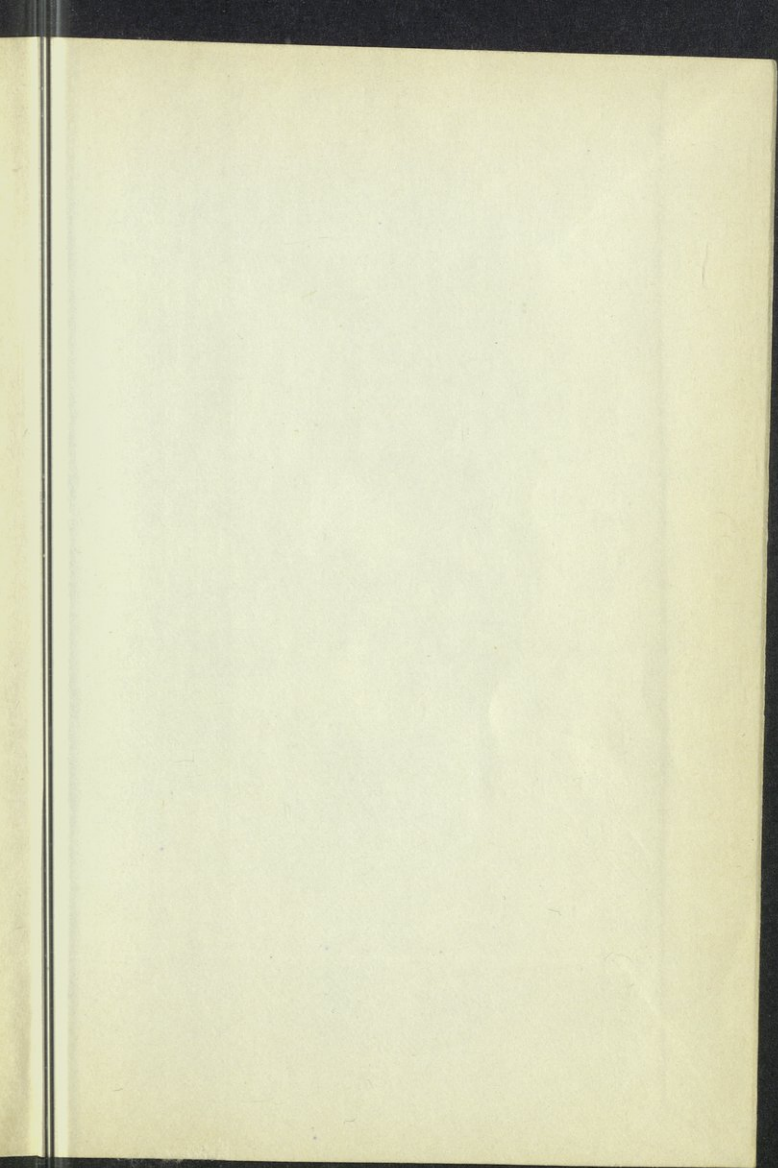
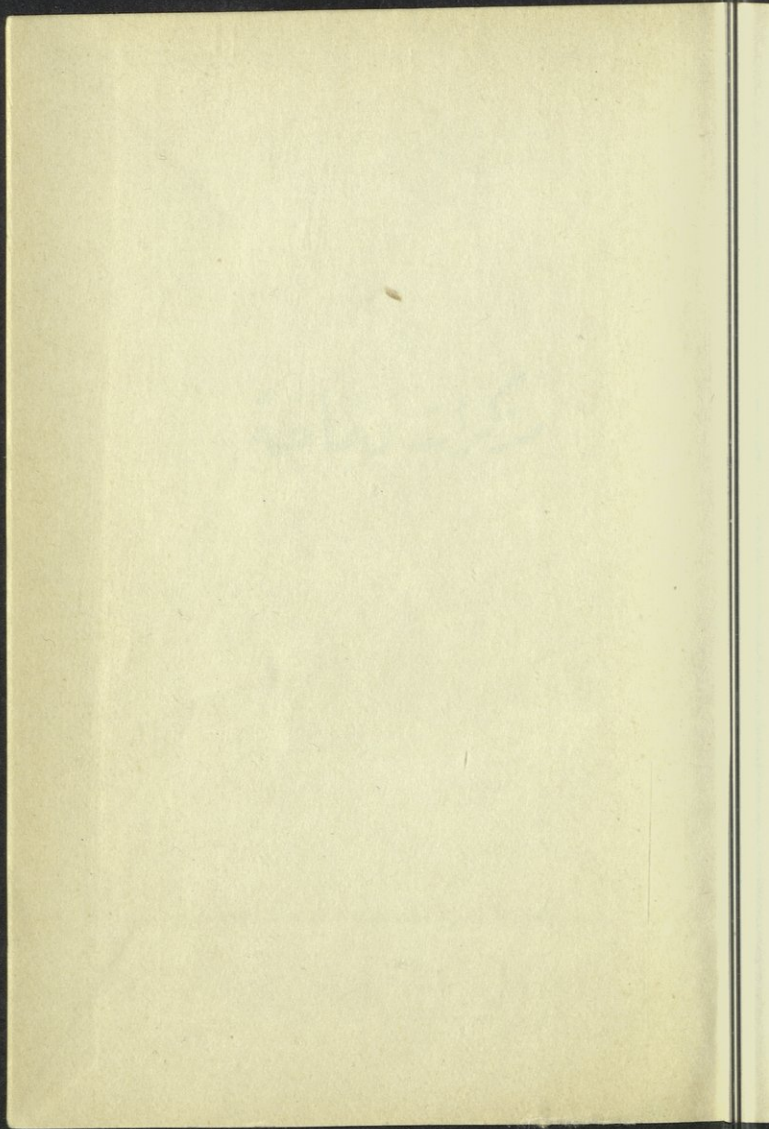


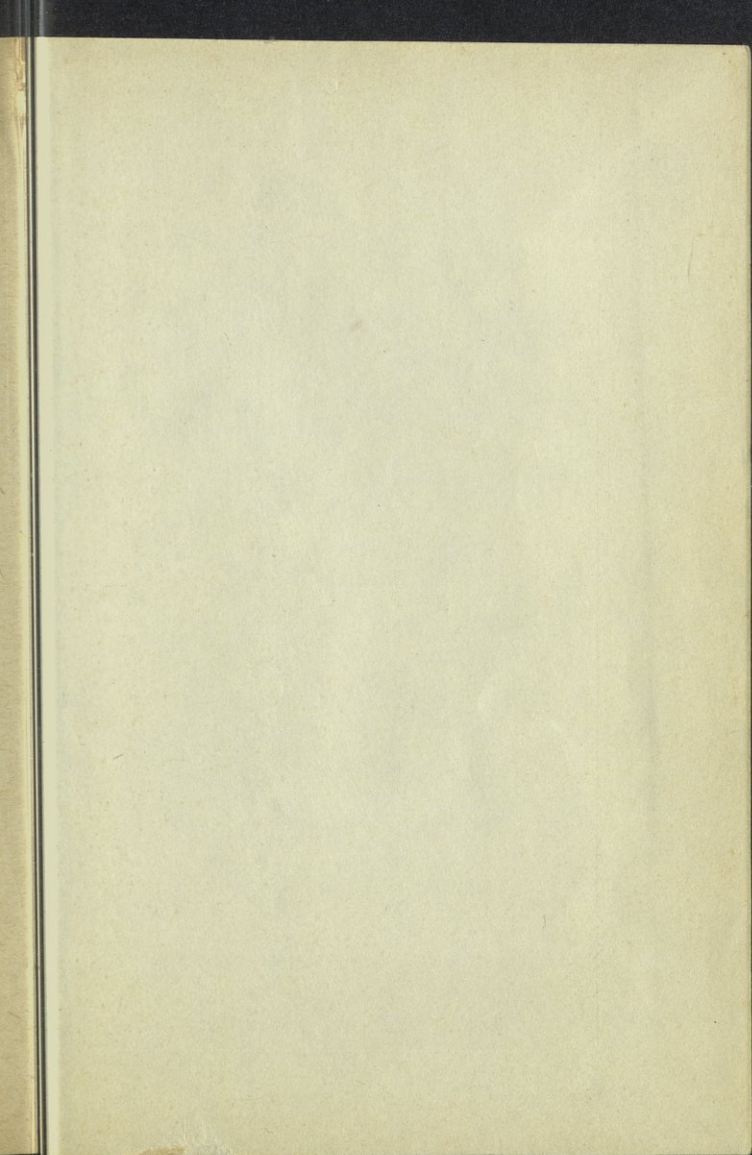


A. U. B. LIBRARY









892.78
Ha 394mA
C.1

مذكرات رجاءة

م
ف
م
ا
و
ه
و
ف

مقدمة

بقلم الدكتور طه حسين بك

هذه دجاجة عاقلة جد عاقلة ، ماذا أقول ! بل هي دجاجة مفلسفة تدرس شؤون الاجتماع في كثير من التعمق وتدبر الرأى ، فتصل إلى استكشاف بعض الأدواء الاجتماعية وتصف لها الدواء . ماذا أقول ! بل هي دجاجة شاعرة تجد ألم الحب ولذته وعواطفه المختلفة التى تدق أحياناً حتى لا يهتدى إليها إلا الشعراء الملهمون ولا يقدر على تصويرها إلا الذين أوتوا حظاً من سحر البيان ! بل هي دجاجة رحيمة تعطف على الضعفاء والبائسين وترق للمحرومين وتؤثرهم على نفسها وإن كان بها خصاصة ؛ وهى على هذا كله بليغة فصيحة تفكر فتحسن التفكير وتؤدى فتجيد الأداء ، ومن الحق

أن هذه الدجاجة تشعر شعور الناس وتفكر تفكيرهم وتعبّر كما يعبرون . وقد كنا نظن أن عيوب الناس مقصورة عليهم حين تتصل بالأخلاق الفردية والاجتماعية ، فإذا هذه الدجاجة تبين لنا أن عيوب الناس شائعة في نوع من أنواع الحيوان هو الدجاج ، وأن محاسن الناس — وهي قليلة — تشهد أيضاً في هذا النوع من أنواع الحيوان وهو الدجاج .

وكذلك كشفت لنا هذه الدجاجة عن نظراء يشاركوننا في لذاتنا وآلامنا وفي محاسننا وعيوبنا . وهي في ذلك تشبه تلك الحيوانات التي تحدثت في كلية ودمنة منذ قرون طوال . ومن يدرى ؟ لعلها تتحدث كما تحدثت تلك الحيوانات جاعلة من نفسها رمزاً لنا معربة عما لا نستطيع نحن أن نعرب عنه حين نريد أن نصور حياتنا ونصف ما فيها من العيوب والأدواء . وهذه الدجاجة فلسطينية وقد كتبت مذكراتها في أكبر الظن بلغة الدجاج وعلى النحو الذي يصطنعه هذا النوع حين يكتب نبشاً أو تصويراً على ضروب من الصحف لا نعرفها نحن ، والله عز وجل قادر على كل شيء ، وقد علم سليمان عليه السلام منطق الطير ولغة الحيوان . وكأنه علم صديقنا الدكتور إسحق الحسيني لغة الدجاج ،

فقد قرأ مذكرات هذه الدجاجة الفلسطينية ففهم عنها أحسن
 الفهم وترجم عنها أحسن الترجمة، وقرأنا نحن ترجمته هذه فشاركنا
 دجاجة فلسطين فيما أحست من حزن وفرح ومن لذة وألم. ورأينا
 — وما أعجب ما رأينا — أن دجاجة فلسطين تجد من حب الخير
 وبغض الشر والطموح إلى المثل العليا في العدل الاجتماعي وفي
 العدل الدولي وفي كرامة العروبة وحقها في عزة حديثة تلائم عزتها
القديمة ما يجده كل عربي من أهل فلسطين بل من أهل الشرق
العربي كله فليت شعري أيهما ترجم عن صاحبه !! ترجم
 الدكتور إسحق الحسيني عن الدجاجة أم ترجمت الدجاجة عن
 إسحق الحسيني؟ وأي غرابة في ذلك؟ لقد مضت سنة الشعراء
 من العرب على أن يشاركووا الحمائم في الحب والحنين والأسى،
 فيترجمون عنهن، حيناً ويزعمون أنهن يترجمن عنهن حيناً آخر:
 أبناات الهديل أسعدن أو عد

ن قليل العزاء بالإسعاد

إيه لله درّكن فأنتم

ن اللواتي تحسن حفظ الوداد

فما يمنع الدكتور إسحق الحسيني أن يتجاوز بهذا الفن حمام
القدماء إلى دجاج المحدثين !

أما بعد فإني سعيد حين أرحب بهذا الكتاب بين أجزاء
هذه السلسلة لأنه كتاب صديق كريم ولأنه كتاب أخ من أهل
فلسطين ولأن في صدوره بين أجزاء هذه السلسلة برأ بما وعدنا به
من جعل هذه السلسلة وسيلة من وسائل التعاون الثقافي وأداة
من أدوات الوحدة الفكرية بين أهل الوطن العربي كله .
فلمصاحب هذه القصة تحية الحب الذي ينتظر لفته مستقبلاً
باهراً وينتظر منه خيراً كثيراً .

طه حسين

أيها القارئ الكريم :

هذه القصة تصف حياة دجاجة عاشت في بيتي ، ووقع بينها وبين ألفة ومحبة . فكنت أطعمها بيدي وأرقب حياتها يوماً فيوماً بالأحداث التي ترونها وقعت لها بالفعل ، وهي لا تتجاوز المؤلف في حياة الدجاج . ولو قدّر لصديقتي الدجاجة أن تتكلم بلغة الأناسي لما قالت غير ما تقرأ . فأنا — في الواقع — أترجم لك ما أوحى به إليّ . أما عنصر الخيال فيها فضئيل ، وهو لا يعدو أن يكون تعليقاً على هامش الحياة أو تحليقاً في عالم المثل العليا .

اسماء موسى الحسيني

القدس : يوليو سنة ١٩٤٣

أني
لف
الق
أش
ع
ك
ت
م
أ
ف
و
ص

مذكرات دجاجة

هذا هو اليوم الثالث من انتقالي إلى بيتي الجديد ، ويظهر
أنى سأكون سعيدة هنا بين أترابى الجديديات . إني حزينة
لفراق بيتي القديم ، ولكن حزنى لن يطول . كنت فى بيتى
القديم أجد مَيدان الحياة واسعاً ، والهواء طلقاً ، ولكننى كنت
أشكو عسرَ الحياة وقلةَ الطعام ، وعدمَ مبالاة مضيفتنا بعافنا
عن سعة على أنى كنت مع ذلك أجد من ربة البيت حُباً
كثيراً . كنت أشعر أنها تخالطنا بروحها ، وتُعنى بأمورنا عناية
تحملها على أن تعدّنا كل صباح عند انطلاقنا من مأوانا ، وكل
مساء عند عودتنا إليه . ما كنت أفهم سرّ هذا العد ، ولكننى
أحمله على محافظتها على أرواحنا . بيد أنه إن كان الأمر كذلك
فلم فرطت ربة البيت بى ؟ لقد كنت أحفظ لها فى قلبى جميلاً ،
وكنت أنظر إليها حينما أخرج من المأوى نظراً إعجاب وحب
صادق ، وكنت أظن أنها تبادلتنى شعورى ، وأنى سأملك

عندها مدي الحياة . ولكنني فُوجئت يوماً بقدومها إلينا على غير
عادتها مبكرة في الصباح . وما أدري سرَّ انقباض زوجنا في ذلك
اليوم . يظهر أنه كان يشعر شعوراً غريباً . لقد كان يكثرُ من
الصَّياح ، وكان في صوته أنين شعرت به ، ونَبَّهت إليه إحدى
رفيقتائي . فقالت لي : إنك متشائمة اليوم . قلت : قد يكون ذلك ،
وأرجو أن يكون يوماً كأمسنا . وبعد لحظة دخلت ربة البيت
علينا ، وأقفلت وراءها الباب . فزعنا . وكنت أشدَّ رفيقتائي
فزعاً ، وأسرعهن إلى القفز إلى الباب . وأخذت أهدق إلى
الربة أتأمل وجهها ، وأحاول أن أتبين فيه سرَّ بكورها ، ولكنها
بدلاً من أن تنظر إليَّ كهادتها لمع في عينيها بريقٌ ما رأيت
نظيره من قبل . وبعد قليل أقبلت نحوي في سرعة واضطراب ،
فثبتت في مكاني وأنا مشفقة عليها متكدرة حزينة ، لأنني أرى في
اضطرابها ما أعجز عن تخفيفه . ثم أسرعت الخطى وانقضت عليَّ ،
فنظرت إلى رفيقتائي وإلى زوجي الطيب فوجدتهم جميعاً جزعين .
ويظهر أن دُوراً أصاب رأسي من التفكير في أمري ، ولما
عاد إليَّ شعوري وددت لو تُبيح ربة البيت إطلاقي لأودع
رفيقتائي وزوجي الطيب . ولكنها بدلاً من أن تُعينني على تحقيق

رغبتي أوثقت قدمي ووضعتني في جفنة وجاءت بي إلى هذا البيت الجديد .

من يدرى لعلى أسرفت في سوء الظن ، ولعل ربة البيت آنست مني ضيقاً بالحياة ، فأرادت أن تروح عني بمجيئي إلى هذا البيت . ولكن ليتها خيرتني بين البقاء والذهاب . وليتها رفقت بي ولم توثق رباطي . ولكني إذ أعود بذكري إلى حياتي في البيت القديم لا أرى ما يدل على أن ربة البيت حسبت لرأي حساباً . هذا على ما يظهر شأن هذه العملاقة التي رزقها الله بسطة في الجسم تخيفنا وترعبنا . كم كنت أتمنى لو كانت ربة البيت تفهم مني ما أقول . إني إذن لشكرت لها رفقتها بي وحبها علي يوم كنت نازلة في بيتها معززة ، ولكنت أوصيتها خيراً بأسرتي ، وخاصة زوجنا الصالح الذي لن أنساه .

تري سأكون سعيدة في هذا البيت ؟ قلت إنني أشعر بأنني سأكون كذلك . وهذه المظاهر التي حولي هي التي أوجت إلي بهذا الشعور . فمنذ ثلاثة أيام وأنا أذوق الحب السمين يوضع أمامي في كرم يبلغ حد الإسراف ، والماء يوضع في إناء نظيف . أظن أنني ضحيت أشياء لقاء أشياء . ضحيت الحياة الرحبة الواسعة ،

والمناظر الريفية ، وعوضت عنها بوفرة الماء والطعام ، وبقلة العناء في الوصول إليهما ، إنها نعمة من الله . كنت أريد أن أقول أكثر عن الربة القديمة ، ولكنني أخشى الزلل وسوء الظن . فلا تركزن للأيام المقبلة أن ترشدني إلى الإصالة وتجنبني الخطأ . وليقبل زوجي الصالح وأترابي أصدق عواطفى ومحبتى .

٢

هذا هو اليوم العاشر من مجيئى إلى بيتى الجديد . لقد أردت أن أؤرخ حياتى هنا ، لأتى شعرت فى أعماق نفسى ميلاً إلى كشف السر عن تلك المعاملة التى عاملتنى بها ربة البيت القديم . هل من الإنصاف أن أنزع من بين عشيرتى قسراً دون سبب ؟ قلت لعل ربتى أرادت خيراً ، وأنا من أجل ذلك أريد أن أعرف سر ما فعلت . منذ جئت وأنا أؤرخ مجيئى بأن أضع حصاة وراء البيت فى صباح كل يوم . واليوم عند ما وضعت الحصاة العاشرة انتبهت إلى أنى دخلت فى اليوم العاشر ، فوقفت قليلاً أفكر فى بيتى القديم ، وفى سر تلك الفعلة . الحق أنى فقدت أعزاء ، وأنى لن أجد فى هذا البيت من يعزىنى عن

فقدانهم . نعم إن زوجنا هنا يظهر حباً لي ، ويؤثرني من حين
 لآخر في غفلة عن زوجاته بالحبِّ السمين . وقد لحت في عينيه
 عطفاً على ، إما لأنه علم بغر بتي فأراد أن يواسيني ، وإما لأنني
 ضيفة عليه ، وللضيف مقام .

بدأت آلف البيت الجديد وأشعر بكثير من الهناء والترف .

ولكنني فقدت بعض نشاطي . يظهر أن كل ربح لا بد له من
 خسارة . ولا يمكن الخلق أن يأخذ دون أن يعطي ، ولا أن
 يعطي دون أن يأخذ . كان الحبُّ في بيتنا القديم دونه خِطُّ

القتاد ، وكنا مع ذلك نستشعر النشاط والسرور عند ما تقع
 على حبة سميكة . أما هنا فالحبُّ السمين تذروه الأيدي بسخاء ،

ولكننا نأكل دون اشتها ولا سرور . إني آسفة لقولي هذا ،

فاعله نكران للجميل . ولكنني مهما قلت فإني أ طرح مسؤوليته

على ربي القديمة . ليتم استطلعت رأيي . في الحق أني كنت أؤثر

حياة الريف ، ولكن من يدرى ! فلأولئك العمالة أحياناً

فهم وبصر في الحياة ، ففعل ربي القديمة أرادت بي خيراً حين

نقلتني إلى هذا البيت ، الذي أكاد أسميه مصححاً ، ومع ذلك

فلأترين ولأرين ما سيكون .

حقاً أن لكل جديد لذة . فإننى أستشعر اليوم بكامل حواسى
لذة لا حد لها فى بيتى الجديد . وإنى لأسفة لحرمانى هذه اللذة
فى تلك الأيام الطوال التى قضيتها فى بيتى القديم . إنا نقطر
ونتغذى ونتعشى فى ساعات منظّمة ، ونتنزّه بعد كل أكلة فى
أرض نظيفة ، وماؤنا قراح يقدم إلينا فى إناء جميل . وغرفة نومنا
تنظف مرتين فى الأسبوع . إنها حياة منعمة هنيئة .

جلست أمس فى الظل أنظر فى حياتى هذه ، وأقابلها بحياتى
القديمة ، فأحمد الله على أن ساقنى إلى مسكنى الجديد سوقاً لا خيرة
لـى فيه . يظهر أن المخلوق مسير فى هذا الوجود ، وأنه يدفع
إلى الخير أو الشر دفعاً ليس له فيه رأى ولا حيلة . وما دام الأمر
كذلك فلم يعنى المخلوق بكشف الغيب وتعجّل المصير ؟ ليعمل
فى يومه ما يؤمن له الراحة والسرور ، وليترك الغد لبارئ الخلق .
والطمأنينة الوحيدة التى قد تقوم مقام التطلع إلى المستقبل هى
عمل الخير الحض ، فالخير الصالح هو الذى ينهى حياة يومه
ونفسه راضية أتم الرضى عن عمله فى ذلك اليوم .

وفيا أنا أفكر وأحاور نفسي إذ جاء زوجنا إلى وأخذ يُسرّ
 في أذني حَبَّة لي وإعجابه بي دون سائر زوجاته . ولم يسعني إلا أن
 أبادله حبا بحب ، وعظفاً بعطف ، وإعجاباً بإعجاب . ووجود هذا
 الزوج الصالح العطوف المُحب هو من سوق القدر . ولكني ،
 بعد أن تبادلنا التحيات ، فكرتُ في سائر زوجاته ، ترى أينعمن
 بحبه كما أنعم ؟ أيسمعن منه كما أسمع ؟ أم هنّ محرومات السرور
 والبهجة ؟ فإن كان الأمر الأول فلا بد أن يكون زوجي بارعا في
 إدارة بيته ومعاملة زوجاته . قلت بارعا لأنني لا أحب أن أقول
 مدهاناً أو منافقاً . وإن كان الأمر الثاني فما أشقاني بشقائهن
 وما أحزنني بحزنهن ! .

الحق أني كنت أؤثر أن أنجو من هذا المأزق بأن أعيش
 مع زوجي وحيدة ، فلا أتهمه ولا أنكد عيشي بوجود سائر
 زوجاته . ولكن أليس هذا أنانية مني ؟ لم لا أقع قناعة سائر
 الزوجات ؟ ولم أفسد حياتي بهذه المطامع البعيدة ؟ لنأخذ الحياة
 كما هي إن شئنا أن ننعم بالطمأنينة ، فالحياة معقدة مبهمة ،
 ولا سبيل إلى خلقها خالية من هذا التعقيد والإبهام .
 يظهر أن الخلق يُرزق الرضى والقناعة عند مجيئه إلى الحياة ،

ثم ما يفتأ يوسع من رغباته وآماله حتى يُفسد عليه فطرته الأولى .
 لا أريد أن أكون من ذلك الطراز ، وسأحرص منذ اليوم على أن
 ألتزم فطرتي الأولى . وبعد أن دارت في نفسي هذه الأفكار
 بسرعة ، ذهبت إلى زوجي وقلت له : أنت حبة القلب ومنى
 النفس ، ومثلك خليف بأن يُرزق السعادة وأن يحظى بالحبّة
 والوفاء . التفت إليّ وقال ضاحكاً : وأنت كذلك . أظن أنه
 قالها والبشر يملأ قلبه . إني أعتقد أن زوجي ساذج ، وأن فطرته
 الأولى لم يشبها طمع . لعله حرم هذه التأملات فسلم مما يعكر
 صفوه . أريد أن أقول إنه خير مني ، وإن لم يكن كذلك
 فهو على الأقل أنعمُ بالآ وأهدأ نفساً .

٤

(لقد شَغَفَنِي زوجي حباً ، وتملأ كلّ جارحة من جوارحي .
 ولو كان لي أن أقتطع من لحمي شطراً وأطعمه إياه لفعلت . ولو كان
 لي أن أتخذ من عيني ماء وأسقيه إياه لما توانيت . ولو كان لي أن
 أكسوه أجمل ثيابي لما ترددت .

ولم لا أفعل كل ذلك ؟ إنه لمثال المروءة والكرم والحنو والحب .

إِنْ وقع على حَبَّة سَمِينَةٍ دعانا إليها ، وآثرنا بها دونه . وإن سقط
على شربة ماء توقف واستقدمنا لنبدأ بالشرب قبله . وإن سمع
صوتاً مفرغاً انتفخت أوداجُهُ ، وتصلبت أعصابه ، وثار الدم في
وجهه ، واستعد للقاء المكروه بنفسه . ولو جاء المكروه من أكبر
مخلوق وأقسى معتد لكان موقفه موقف المدافع الذاب عن حماه .
فليت شعري أى مخلوق يقف منا هذا الموقف النبيل ؟ .

(وجماله فتنة لا مثيل لها ، وصوته سحر لا يشبهه شيء . أودُّ
أحياناً أن ينقلب جسمي كله عينا واسعة الخدقة لتستمتع بجماله
ولتعرف من جلاله ما شاء لها الله أن تفعل . وكما أودُّ أن ينقلب
جسمي كله أذناً واسعة مرهقة لتتلقَّف صوته الجميل ، ولتستمع
إلى أناشيده الرائعة وغنائيه العذب . وكما آسف لأنني لا أستطيع
أن أكون كما أريد . فليُغنِني عن بلوغ الغرض . ولتنبِّ
الأماني عن تحقيق الرجاء .

(أمّا ذلك العرف القرمزي اللين ، الذي يتدلَّى من مفرقه ،
فقطعة فنية من صنع خالق مِفَنِّ بارع . وأما ذلك العُنُق الطويل
الوسيم الذي يشبه غصنَ المنشور وقت ازدهاره ، وأما ذلك الفم
الجميل الدقيق الذي أودعه الله أعذب لسان ، وأما ذانك الجناحان

المولّنان بأجمل الألوان ، وأما تانك الساقان الدقيقتان ، وتلك الأصابع الزمرّدية ، وتلك الأظافر العاجية ، وتلك المشية المتهادية فصنع خالق جميل ، أحبّ الجمالَ فطبع خلقه بطابعه ، وأنشأهم على صورته ، فجاءوا أجملَ مخلوقات من صنع أجمل خالق .

ما أبهرج صباحنا حين يخرج زوجنا من مخدعه ويمشي مشية المدلّ بجماله ! ويصعد في أعلى مكان ، ويفتن في الإنشاد والشدو في صوت هو السحر الحلال ! إنا لنخرج في الصباح ونقف ذاهلات من فرط ما نشعر به من روعة ونشوة . وكـم نتمنى أن يقف الزمان في تلك اللحظة ليستمرّ ذلك الصوت في نعماته وليآت . وما يكاد زوجنا يرانا حتى يهرع إلينا محميا مؤانسا ملاطفاً . فكأننا أحبّ إليه من غنائه . وهو لو يدرى ما في قلوبنا لعلم أن غناؤه أحبّ إلينا من أنفسنا . وبعد أن يحميننا يقودنا لطلب الطعام الشهى ، وتخيّر المجلس الأنيق .

لقد أردت اليوم أن أداعبه فانفصلت عنه وانتحييتُ مكاناً قصيًّا لأرى ما يفعل . وبعد لحظة استفقدي فنظر حوله يمينه ويسرة فما وجدني . فانتفض ودار دورة حول زوجاته ثم انطلق يبحث عني فما وجدني ، لأنني كنت مختبئة وراء صخر ، فراح

يقطع الساحة طولاً وعرضاً ، ويدمدم في صوت فيه قسوة الموتور
وحزن المكوم ، ثم أخذ يعلو الحجارة المبعثرة في الساحة وأنا أستر
عنه ، ولما لم يجدني قفز على سطح المسكن وأخذ يحدّق ببصره في
جميع الجهات ويناديني بصوت عذب وشدو رقيق ، مستفسراً عن
مكاني ، وما أصابني . وعندئذ انفرطت دمعاً من عيني ولم أتمالك
أن تحركت ، فلمح حركتي بعين كأنها جمة متقددة ، ثم انطلق
نحوي كالسهم ، فنظرت في عينيهِ وقد جمع الله فيهما الحب كله
والحنان جميعه ، فما تمالك أن دنوت منه وسرت بجانبه ،
فعدنا إلى الساحة وعاد إليه بشره ومرحه .

ما أسعدنا وما أطيب أيامنا في هذه الحياة ! إن نعمة الحب هي
نعمة النعم . فما أجدرنا أن نقدرها قدرها ، ونفهمها حقها . لقد
خاب من ظن أن النعمة في المتاع أو المسكن أو الملبس أو الطعام
أو الشراب . إن النعمة هي الحب وحده ، فإن وجد تركزت
جميع نعم الدنيا فيه ، وإن فقد عادت نعم الدنيا جميعها إلى العدم .

كان الطقس البارحة بارداً ، والسماء ملبدة بالغيوم ، فشعرنا جميعاً بانقباض لازمنا طول النهار . وفي صباح هذا اليوم أشرقت الشمس فأرسلت مع نورها الجميل حرارة توغلت في أجسامنا فشاع فيها الانشراح والسرور .

عجيب أمر هذه الدنيا . ففي يوم يمتلكنا الانقباض والضجر ، وفي آخر يشيع في قلوبنا الطرب والفرح . ترى ما سرّ هذين الشعورين المتناقضين ؟ فهل النور والدّفء وسيلة من وسائل البهجة والسرور ؟ وهل البرد والظلام وسيلة من وسائل الانقباض والضيق ؟ إن كان الأمر كذلك فلا بد أن يكون الخالق قدر للخلق أن ينقبضوا يوماً ، ليتهجوا يوماً آخر . ولعله أراد أن يلوّن الحياة بلونين متناقضين ليستطعموا السرور بعد الابتئاس والفرج بعد الشدة ، واليسر بعد العسر . ولو كانت أيام الخلق جميعها على وتيرة واحدة لكانت حياتهم ذات لون واحد وطعم واحد ، ولما وقعت لهم المتناقضات التي هي فتنة الحياة ، ومصدر السعي والنشاط . ما على الخلق إذن أن يتبرم بالحياة وهو عالم

بأن لعسره حدوداً تنتهى عند يسره ، وأن ليسره حدوداً تنتهى
عند عسره .

لله ما أشقانى ! فقد عدت إلى ما حاولت أن أدفعه عن نفسى
من نظر لا طائل تحته . ما الذى يعينى من هذه المتناقضات
وهذه النظرات ؟ أأست مخلوقاً مسيراً لا حول له ولا طول ؟
ولكن عقلى لجوج فى التفكير والتأملات . فلو قدر لى أن ألجمه
بليجام القدر لآب إلى رشده واستقر حيث قدر له أن يستقر .

قلت كانت الشمس اليوم قوية ، وخرجنا من مأوانا نلتمس
حرارتها ودِفْأها ، وقد جلسنا فى حلقة يتوسطها زوجنا الصالح ،
بعد أن مهد كل منا لنفسه مجلساً يشعر فيه الدفء والراحة .
لا أدرى لم جاء مجلسى مقابلاً لمجلس زوجنا الصالح . أجا ذلك
عن قصد وتدبر أم جاء عن صدفة وانسياق طبيعى ؟ وعلى كل
حال فقد هيا لى مركزى هذا فرصة النظر إلى وجه زوجى ، فما
رفعت عيني عنه ، وما انقطع تفكيرى فيه . واليوم لأول مرة
شعرت بأنى محبة موهمة إلى حد الاستخذاء والاستسلام ، وأنى
أرى السعادة فى وجوده ، والبهجة فى لقائه والأنس فى جانبه .
ولا أدرى أ يوجد بعد هذا السرور دور آخر ؟ ماذا وراء هذا

الهيام؟ وماذا وراء هذا الوجد؟ كم أودّ أن أوضع موضع التجربة
 أولاً لأختبر نفسى نحو هذا الذى أشعر به ، وثانياً لأختبر حبي
 بالقياس إلى حب سائر زوجاته . أتمنى مثلاً أن يأتى يوم قاس
 فيطلب منى زوجى أن أعطيه دثارى ، وأن أنزع ماعلى فيكون
 له وحده ، أو أن يمرض فيلتمس طبه من دمي ، فإن قدمت له
 ماطلب كنت صادقة في حبي له غير واهمة ولا مبالغة ، وإن امتنعت
 تبين أنى كنت فى نشوة الحب لا فى الحب نفسه . ومن يُدرينا
 لعل يوماً يأتى وتأتى معه المحنة ، فأتثبت من شعورى . فلا ترقبن
 حوادث الدهر فى غير ضجر ولا احتيال .

٦

لقد كاد يؤمننا هذا أن ينتهى إلى شرّ ، وكاد زوجى الحبيب
 أن يقع فى ورطة . فقبيل بزوغ الشمس وحين ساعة الانطلاق
 من مأوانا شعرت بيد زوجى تهزّ يدي برفق ، فاستيقظت فوراً
 وفتحت عيني ، فإذا ابتسامة ساحرة على فيه . فحدقت إليه
 مستطلعة ولكنه لم ينطق . فعدت إلى إغفاءة الصبح . وبعد ثوان
 أعاد زوجى حركته الأولى ، ففتحت عيني ورأيت متأهباً للخروج

فنظرت إلى فيه أتوقع كلمة منه فلم يزد أن حرَّك رأسه أن اتبعيني .
 عجبت لحاله ، وكدت أثبت في مكاني لولا أني فطنت إلى أنه قد
 يُسرُّ أمراً . فتبعته في خفة إلى خارج المأوى . وهناك توقف لحظة
 وألقى في أذني هذه الكلمة : اتبعيني أيتها الحبيبة . ولو بلغت
 إرادتي أقصى حدها من القوة والنفاز لما استطعت أن أرد له أمراً
 سار وسرت معه ، فأخذ يتخطى الحجارة المبعثرة في الساحة
 باحثاً عن بقعة مرتفعة يجلس عليها فلم يجد مكاناً خيراً من جذع
 شجرة نضدت حولها حجارة كبيرة ، فجلس وجلسْتُ إلى جانبه
 متجهين نحو مشرق الشمس .

قال لي في صوت عذب : لعلك تعجبين لخروجي بك على غير
 عادتنا في هذا الصباح ! قلت : نعم ، وحياتك ! قال : أريد أن
 أخلو لحظات أبثك فيها لواعج حبي فقلت له : لقد وقع ذلك
 منك قبل الآن ، وإن لم تنقله إلى بصورة أصوات ، وإني
 ما شككت قط في حبك لي وعطفك عليّ . قال : ما يزيدني
 كلامك هذا إلا حُباً وإعجاباً . ولكني أود أن أفصح لك عما
 لا سبيل إلى الإفصاح عنه في غير انفراد . أنت ترين سائر
 زوجاتي ، وترين جهن لي وحيي لمن ، وما أملك حق التفريق

بينهن ، وما كان لى أن أوثر ك عليهن ، ولكن لا حيلة لى فى
أشعر به ، فأنت تحتلين المقام الأول فى قلبى ، ومذ جئت وأنت
تقتنينى بحسن عشرتك ، ورقة حاشيتك ، ورزاة عقلك ،
وعذوبة حديثك ، وتكلفك إرضائى بجميع الوسائل وإنى لأعلم
أنك لو تقدرين على إعطائى جزءاً من لحبك لفعلت . قلت :
يا حبيبى ، أنت أهل لهذا ، فقاطعنى قائلاً : ولا أود أن أوهمك
أنى لا أحب سائر زوجاتى ، فإنهن محبات لى ، عزيزات على ،
ولكن حبك نوع آخر . الحق أنى لا أعرف كيف أعبّر عما
أشعر به نحوك . ربما يحسن بى أن أقول إنك أقدر سائر زوجاتى
على إرضائى والتحكم بعواطفى . قلت له : يا حبيبى الحب واحد .
وجميع زوجاتك ، وأنا معهن ، يحببنك حباً متساوياً . وما
أحسبك إلا محباً لنا جميعاً على السواء . وما تشعر به الآن قد
يكون مجاملة أو ظرفاً دُفعت إليه لسبب من الأسباب . فالحب
إن كان من الأعماق لا يصح أن يوضع فى مراتب . فهو من
مصدر واحد وإلى غاية واحدة . وأنت لنا جميعاً بقلبك وعواطفك ،
وما رأييناك تؤثر إحدانا على الأخريات . وحبك لنا مصدره قلبك
الذى لا يجوز عليه التقسيم . فابتسم وقال : ومن أين لزواجى

مثل هذا المنطق العذب ؟ قلت ، وطرفي منكسر : إنك يا حبيبي
ينبوع الحكمة . فقال : ومن أين لمن مثل ذوقك وحصافتك ؟
وفيم أهمّ بالجواب إذ حركة تنبعت من ناحية المأوى ، وإذ
الصدقات متجمعات قرب الباب ينظرون إلينا في دهشة .
فتركت زوجي وأسرعت إليهن أحييهن وأسألهن عن حالهن .
فتضاحكن ، وقالت إحداهن : أراقت بزوغ الفجر ؟ وقالت
ثانية : أتجدين في هواء الصباح المبكر رقة وعذوبة ؟ فقلت
مستحيية : يا صديقتي ، اللذة لا تكون إلا معكن ، فالصباح
والهواء والطعام والماء جميعها من مادة واحدة لا تختلف ، ولكنها
تصبح ذوات طعم خاص إن اقترنت بصحبتهن وحبكهن ،
فأنتن مصدر اللذة والمتعة . فقالت الأولى : وزوجنا ؟ فوقعت
على هذه الكلمة كالصاعقة ، ولم يرد إلى رشدي إلا قدوم
زوجنا ، خفضت من صوتي وخفضت من أصواتهن ، وتظاهرت
وتظاهرن بالبشر والسرور . ومن يستطيع أن يرفع طرفه في ذلك
الوجه المشرق ؟ إن أقصى ما تبلغه عيوننا تان الساقان الرقيقتان
الأنيتتان .

جاء زوجنا وسار أمامنا يلتمس الطعام والشراب والمجلس

الأنيق ، فتبعناه . وهل يقابل مثل ذلك العمل إلا بالاستسلام ؟
 بم تقابل من يؤثرك على نفسه بالطعام والشراب ، ومن يفديك
 بروحه حين يعزُّ الفداء . ؟ .

لقد كانت ورطة في الصباح ، ولا أدري كيف تنتهى .

صاحب الأمر

٧

تمر الأيام وتنقضى الأعمار ، والخلق غافل كأنه ثمل ، لا يعي
 ما يسمع ولا يرى ما يبصر . وفي حالات كأنها لحظات يستيقظ
 من غفلته ويصبح مرهف الحس ؛ حديد البصر ، قوى السمع ،
تتجمع فيه جميع القوى ، ويحسُّ ما حوله حساً عنيفاً . فكأنه
 قد أدخر في إبان غفلته جميع حواسه ليطلقها في تلك اللحظات
 القليلات .

كنا اليوم في حالة من هذه الحالات التى تنتاب الخلق .
 فقد أقام زوجنا حفلة رائعة قضينا فيها ساعات نلهو بالرقص
 والشراب والغناء . كان زوجنا في هذه الحفلة مطلقاً لنفسه العنان
 يُعْمَنُ في الشراب واللهو كأنه يودع الدنيا وداعه الأخير . فأكل
 أكل النهم ، وشرب شراب الظمآن ، ورقص رقص

الشياطين . ولم نكن نحن جميعاً أقلّ منه تهالكا على اللذات ،
فشربنا حتى دبّت النشوة في جميع أطرافنا ، وأكلنا حتى
ما وجدنا مكاناً لمزيد ، ورقصنا حتى خدّرت أرجلنا .

كنت أحسب اللذة الجسمية تنتهى عند حد . وأن معدة
المخلوق لا تتجاوز حدّ الشبع من طعام أو شراب . ولكنى بعد
أن أكلت ما أكلت ، وشربت ما شربت صرت أعتقد أن
طاقة المخلوق على الطعام والشراب أقوى مما يظن . كنت أعجب
أين يذهب الطعام والشراب اللذان إن وزتهما زاد وزنهما عن
وزن جسمى . فيا للعجب كيف يدخل إلى جسمى ما يساوى
جسمى !

كان الشراب يلعب برؤوسنا ، فينقلنا إلى عالم الأحلام . فما
نرى إلّا أرواحاً كالملائكة تُحيط بنا وتأخذ بأيدينا مراقصة
مضاحكة في مؤانسة لا حدّ لها . وكانت الأرواح تتراءى لنا كأنها
متزينة بأحسن زينة ، وتظهر من أجسامها ما يسلب عقولنا ويدفعنا
إلى الإمعان في اللهو والاستمتاع .

أما زوجنا الصالح فقد انقلب في أعيننا إلى روح من تلك
الأرواح . وتراءى لنا كأنه آخاها ودخل في زمرتها . فنزعنا

عليه ألبستها الجميلة . وما امتاز بأعيننا إلا بوجهه المتوج بذلك
 العرف القرمزي . أما نحن — زوجاته — فكنا بين أيدي تلك
 الأرواح كاللشي بين أيدي الأطفال يجرونها كيف شاءوا ،
 وحيث شاءوا .

وشعرنا بأن تلك الهيبة التي يتحلّى بها زوجنا قد انقلبت إلى
 ألفة كالتى تكون بين طفلين ، وأن تلك الحشمة والكلفة اللتين
 نصطنعهما فى حياتنا قد انقلبتا إلى ألفة وخلطة بالفتين أقصى
 حدودهما .

ما أذكر أننى شعرت بكامل وعي وإحساسى كما شعرت
 اليوم . فكأننى نمت دهرًا واستيقظت ساعة وأنا على أحد
 ما أكون من النشاط ودقة الحس . كنت أشعر أنى مخلوق جديد
 رزق إحساس جيل من الخلق ، وقوة عملاق من الجن ، وأنى
 أستطيع أن أسير الأيام بينانى .

ظلنا على هذه الحال من الصباح حتى العصر . وما منا إلا
 من يتوقع أن يواصل يومه بليله إلى آخر العمر . فمن يصحو صحونا
 هذا ، ومن يستمتع استمتاعنا هذا ، وينتقل بروحه إلى عالم
 الأرواح ، ثم يهون عليه أن تنتهى هذه الحالة فى وقت قريب

أو بعيد؟ ولكن فيما نحن في هذه النشوة هبط علينا عدوٌ
 خفيف. لا أدري من أين جاء، وكيف استطاع أن يجد سبيله
 إلى عالم الأرواح الذي كنا فيه. فما رآه زوجنا حتى انتفض
 انتفاضة شديدة، ووقف يقابله وجهاً لوجه. ويظهر أن ذلك العدو
 كان يرقب ما نحن فيه من لهو وشراب، وكان يحسب أننا نستسلم
 له، ولا تجد في أنفسنا ما يرد عدوانه. ولكن زوجنا ظهر في حالة
 ترعب الرعب، وكأن جميع الأرواح قد اندمجت في نفسه، فانقضَّ
 على العدو مصاولاً مقاتلاً. أمّا نحن فلم نستطع حراكاً. فقد تولانا
 الذعر، وراعنا العدوان الطارئ. فجلسنا نشهد الصراع بين
 خصمين جبارين. استمرّ القتال طويلاً، وكان زوجنا يعلو خصمه
 تارة، ويعلوه خصمه تارة أخرى. وكان الدم يتفجر من جسمه
 أشد ما يكون حمرة. لقد كان الصراع في حالة توهمنا أن زوجنا
 هالك لا محالة. فقد كان العدو أقسى قلباً وأشدّ عنفاً وأطول باعاً
 من زوجنا. ولكن قوة من الله حلت في زوجنا في لحظة، ففرع
 رأس خصمه قرعة أفقدته رشده فقمنا إليه مهللات مهنئات.
 فزادت الحمية في نفسه وانقضَّ على خصمه انتفاضة أفقدته الحياة.
 وطرح الخصم المعتدى في خارج الجدار. عاد زوجنا إلينا وعدنا

نحن إلى أنفسنا نَتَفَقَّدُهَا ونلتمس العودة إلى ما كنا فيه .
ولكن ما أبعد ما طلبنا . فقد عادت نشوتنا أشبه بحلم ، وعادت
نفوسنا إلى حالتها الأولى . وفي الحق أننا لم نفكر طويلاً فيما كنا فيه ،
فقد صرفنا عن ذلك الجروحُ البالغة التي أصابت زوجنا . ولم تألُ
كلُّ واحدة منا بذل الجهد ، وما فوق الجهد في تضמיד جراحه
ومواساته . ولم نجد خيراً من أن ننتقل جميعاً إلى ما وانا نستعجل
الليل .

كنا من الصباح إلى العصر في حالة وعى عجيبة . وكنا نحسب
أن زوال تلك الحالة من أبعد الأمور . فينبغي لنا على الأقل وقت
يعادل ذلك الوقت الذي لهونا فيه كي نسترد غيبوبتنا التي تلازمنا
في أيامنا ولكن لم يمرَّ أكثر من نصف ساعة حتى خرجنا من
طور اليقظة إلى طور التخدير .

كانت حفلة اليوم حالة من تلك الحالات القليلة التي يستيقظ
فيها المخلوق من غفوته ، ويعيش بكامل حواسه . أفنعود إلى
مثلها يا ترى ؟ .

جلست أفكر اليوم بعد تلك الحفلة في مصيرنا لو قُدر لذلك العدو أن يصرع زوجنا . لا شك في أننا لانستطيع أن نقاومَه ولا سبيل لنا سوى الاستخذاء والاستسلام . قلت في نفسي : ترى ألا يخطر مثلُ هذا الخاطر في بال زوجنا ؟ ألا يقدرُ ما يكون عليه حالنا بعد مصرعه ؟ وإن فكر فماذا أعدّ لنا من وسائل الدفاع ؟ أغلب الظن أنه لم يفكر في شيء من هذا ، لأنه لو فكر لأطلعنا على ما هيا من عُدّة .

لقد قادني هذا الأمر إلى الطغيان في الفكر ، وإلى الإسراف ^{السايف} في الطموح . ولا عجب في ذلك فالتقضية قضية موت أو حياة . ^{الضربة} لقد حملني تفكيري على وجوب التسلّح بمثل القوة التي يتسلّح بها زوجنا . يجب أن نتخذ العُدّة لندافع عن أنفسنا في وقت الشدة ، وأن لا نترك تحت رحمة الدهر القلب . وما يمنع الانثى أن تكون كالدكر في مقارعة الخطوب وملاقاة الأهوال ، وعراك الأزومات ؟ وإلى متى نظل عالة على الذكور نحمله مسؤولياتنا ومتاعبنا ؟ نعم إن عليه مسؤولية تعادل ما ركب الله فيه من

قوة وبأس ، ولكن علينا نحن أيضا مسئولية تعادل ما أودع الله
 فينا من حركة وحياء . فيجب أن لا نقعد ، عند الملمات ،
 جزعات ، فزعات ، مستسلمات مخذولات . يجب أن نكون
 للذكر مصدر قوة لا مصدر ضعف . وإذا لم يركب الله فوق
 مفرق الأنثى عرفا كعرف الذكر فقد ركب فيها عقلا كعقله ،
 ونفسا كنفسه ، وقلبا كقلبه . وهى إن لم تستطع أن تنافسه
 وتجاربه ، فإنها تستطيع أن تكون من نفسها قوة تستقل بها
 عنه فى الملمات .

لو كان الذكر يدوم للأنثى دوام العمر ، ولو كنا نضمن له
 السلامة والعافية والظفر فى جميع الملمات ، لما حق لنا أن ننفذ
 بآمالنا الى هذا الحد . ولكن لا الدهر مأمون ، ولا الأحداث
 مضمونة ، ولا الذكر مكفول العمر . ونحن بين أمرين : إما أن
 نعيش عيشة الأيم والبؤس والشقاء عند فقد ذكورنا ، وإما أن
 نسلح أنفسنا ضد العوادي والخطوب منذ نشأتنا ، وفى أيام
 صبا . فنخفف من قسوة الدهر ، ونقلم من أظفار المصائب .

حملتني تلك الحادثة المروعة فى يوم الحفلة على إرسال الفكر
 فى مثل هذه التأملات . وأظن أنى شططت . فليس لى أن

أُخْلِقَ مِنْ جَدِيدٍ ، وَلَيْسَ لِي أَنْ أُسْتَدْرَكَ مَا فَاتَ . وَلَكِنِّي أُمْلِكُ
 { التَّمَنِّيَ وَالتَّعْزِي . وَلَمَنْ يَأْتِي بَعْدِي مِنْ ذَاوَاتِ الْعَقْلِ النَّيِّرِ
 وَالبَصِيرَةِ الْوَاعِيَةِ ، أَنْ يَتَجَاوِزْنَ حُدُودَ الْأَمَانِي إِلَى حُدُودِ الْعَمَلِ . }

٩

قَضِينَا أَسْبُوعًا كَامِلًا حَوْلَ مَرْقَدِ زَوْجِنَا الصَّالِحِ نَعَالِجُهُ وَنَضْمُدُ
 جِرَاحَهُ الَّتِي أَصَابَتْهُ فِي ذَلِكَ الصَّرَاعِ . وَكَانَ زَوْجُنَا فِي أَثْنَاءِ هَذَا
 الْأَسْبُوعِ مَنْحَرَفَ الْمَزَاجِ ، كَثِيرَ التَّسَالُمِ وَالتَّوَجُّعِ مِنْ جِرَاحِهِ .
 وَكَانَ وَجْهُهُ تَعْلُوهُ صَفْرَةٌ ، وَعَرْفُهُ الْقَرْمُزِيَّ مُسْتَرْخِيًا قَاتِمَ اللَّوْنِ .
 وَكَانَ أحيانًا يَرْفَعُ صَوْتَهُ بِالْأَنِينِ وَالشَّكْوَى . نَظَرْتُ فِي حَالِهِ
 وَعَجِبْتُ لَخَوَرِهِ وَضَعْفِهِ بَعْدَ تِلْكَ الْقُوَّةِ وَتِلْكَ الْعَزِيمَةِ اللَّتَيْنِ كَانَ
 يُبَدِيهِمَا قَبْلَ تِلْكَ الْوَاقِعَةِ . كُنْتُ أَرَى زَوْجَنَا فِي حَالٍ مِنَ الْبَأْسِ
 فِي الْأَيَّامِ السَّابِقَةِ تَوْهَمَنِي أَنَّهُ كَفِيٌّ لِمَصَارَعَةِ الدَّهْرِ ، وَمُصَاوَلَةِ
 الْخَطُوبِ ، وَمُقَارَعَةِ الْأَحْدَاثِ . فَإِذَا بِهِ بَعْدَ تِلْكَ الْوَاقِعَةِ يُصْبِحُ
 فِي حَالَةٍ أَوْعَفَ الْخُلُوقَاتِ . تَرَى أَتَغَيَّرَتْ رُوحُهُ ؟ أَمْ تَغَيَّرَ جِسْمُهُ ؟
 أَمْ مَاذَا أَصَابَهُ ؟ وَهَلِ الْخُلُوقُ مِنَ الْمَوَانِ وَالضَّعَةِ بِمِثِّ يَنْقَلِبُ

اعتداده بقوته ، وخيلاؤه ، في أيام قلائل ، إلى انكسار وتراخ
وخذلان ؟ .

لقد أتاح لي هذا الأسبوع أن أبلو زوجاته بلاء ما تيسر لي
في أثناء عشرتنا السابقة . وكان زوجنا كان سَمَطَ العَقْد ، فما
انقطع حتى انفطرت الحببات ، وذهبت كل حبة في سَبِيلِهَا . أو
هو أشبه بعمود البيت سقط فتداعت الجوانب إلى السقوط .
ولكن هذا العمود في نفسه كسائر جوانب البيت قوة وضعفاً .
فهو في مرضه يئن كما يئن كل مريض ، ويتألم كما يتألم كل مكلوم ^{مُجْرِع} .
لا أستطيع أن أقول إن إحدى زوجاته تهاونت في أمره ،
وقصرت في أداء واجبها نحوه . أو أنني فُتِمْتُ زوجاته حَدَباً عليه
ورفقاً به . ولكنني شعرت بأننا لم نكن متساويات في شعورنا .
سمعت إحدى زوجاته — وهي صاحبة تلك الكلمة في ذلك الصباح
الذي خلوت فيه بزوجي دون سائر زوجاته — سمعتها تقول : على
الزوجة التي آثرها زوجها بحبّه أن تقوم بالدور الأول في معالجته ،
وعلى تلك الزوجة التي فُتِمَتْ زوجها واستأثرت بعواطفه دوننا
أن تشاركه اليوم في آلامه . أما نحن فما علينا من ذلك كله . نعم ،
إننا نؤدى واجبنا نحو زوجنا العزيز ، ذلك الواجب الذي فرضه

علينا الدين والخلق ، ولكن لا نستطيع أن نتكلف ما فوق
 طاقتنا . لقد خُلِقَ ليلنا للنوم ونهارنا للعمل ، فإذا جاء الليل
 اتخذناه لنا لباساً ، وما استطعنا أن ندفعه عنا . وحين يأتي النهار
 نتفرغ لواجباتنا دأبنا كل يوم ! والله لقد كانت كل كلمة من
 هذه الكلمات التي تقوّهت بها ربّي أشدّ علىّ من وقع السهام
 لست أفتخر إذاً أقول إني ما شعرت بالنوم إلا لما في أثناء
 تمرّض زوجي . ومن أين لجفنيّ التغميض وجفنا ذلك الزوج
 الصالح مفتحتان . ومع ذلك فلست بزاعمة أن تلك الترب الطيبة
 كانت أقلّ مني عناية بزوجنا ، ولكنّي أظن أن قلب الخلق
 لا يسعه أن يخلو من الغيرة . وأرى من الإنصاف أن أذكر
 موقف إحدى أترابي الطيّب . فقد كانت تبالغ في خدمة
 زوجنا وتخلّي نفسها من كل شغل سواه . فلا يطلب حاجةً
 إلّا تبادر إليه بها ، كأنها أنشطنا حركة ، وأسرعنا خطواً ، وهي
 في الواقع أكبرنا سنّاً ، وأضعفنا جسماً . ولست أعجب لموقف تلك
 الترب ، فإنها في نظري مثال الاتزان والكمال ، وحسن الخلق
 وطيب النجّار . وهي لا شك نبيهة ذكية الفؤاد دقيقة الحسّ
 ولا بد أن تكون قد أحسّت في ذلك الصباح الذي خلوت به

الأصل هو الحب

بزوجي ما أحسَّ به سائرُ الزوجات ، ومع ذلك لم تبد ما يشعر
 بالانحراف عن مسلكها ، لا في أيام مرض زوجها ولا قبله . أما
 الترب التي أتورَّع عن وصفها بالتحديد خشية أن أنال من كرامتها
 فقد كانت تشغل عن زوجها من حين لآخر بطعامها وشرابها .
 فإذا جاء وقت الطعام لم تبال بما حولها . وكانت الدنيا عندها
 تسير سيرها المألوف ، ولو وقعت في تلك الساعة ساعة على غيرها
 لما نفضت يدها من طعامها . إنني لا أتحمّل على هذه الترب ولا
 أسلقها بلساني ، فلقد عرفت فيها نهمها وشرها قبل هذا الأسبوع .
 وما دامت مسوقة بطبيعتها فلا جناح عليها .

إني إذ أمارس هذه الحالات وأبلى هذه المواقف أحمل على
 درس طبائع المخلوقات والحكم عليها . فمن المخلوقات من ركب
 فيه الحسد والغيرة ، ومنهم من ركب فيه الشهوة العنيفة للذة من
 اللذات ، ينفق في طلبها ما يملك . ومنهم من وهب الحكمة
 والسداد والاعتدال فلزمها في حياته جميعها ، ومنهم من رزق الحب
 والإخلاص والتضحية فشارك أصدقاءه في بؤسهم ونعيمهم ،
 وضرائهم وسرائهم على السواء .

إن كان هناك شيء يُبهِمُ على ويستغلق فهو سر هذا الاختلاف

بين المخلوقات . وما أدري إلى أى حد يُسأل المخلوق عن خلقه وطبيعته ، ما دام بريئاً من كل قدرة على تكوين نفسه بنفسه ، وما دام مدفوعاً إلى ما ركب فيه دفعاً لا قدرة له عليه . ولكن من أين للمخلوق سعة الصدر ، ورحابة الفكر وسموّ النظر ، التي تحمله على أن يبرّر موقف كل مخلوق في الموقف الذي يتخذه . تلك لا شك سجايا ينفرد بها الاقلون . ومن رزقها رزق السعادة والطأينة وراحة الضمير .

نحن جميعاً زوجات متساويات في الحقوق والواجبات ، وموقفنا نحو زوجنا واحد . ومع ذلك فقد اختلفت طبائعنا ، وتباينت أهوائنا ، وإن اتفقنا جميعاً في الظاهر على وحدة الشعور نحو زوجنا . لقد قلت إننا نتساوى في حبه وإجلاله ، وأرجو أن أكون مصيبة في قولي . والأفويل للمخلوق من المخلوق ، ^{لـ}ويا للشقاء زوجنا بنا !

١٠

ضاق صدري بما رأييت من أترابي اللواتي وصفت طبائعهن فيما سبق ، ويظهر أن تلك الطبائع بدت على أوضح صورة في أثناء

مرض زوجنا . فتربى الغيورة تبادت في غيرتها ، وتربى النهمة
الأكل أسرفت في معالجة معدتها ، وبالغت في إظهار انانيّتها .
وهكذا اخذت كل ترب تطلق لطبعها العنان .

وأظن أن مزاجي صار حاداً في هذه الفترة ، فلم أطق السكوت
والتجمل بالصبر . فأسمعتهم ما لا يسرّهن . وعندئذ توسّطت
تلك الترب العاقلة الرزينة بيننا ، وأخذتني جانبا وشرعت تخفف
الخطب على قائلة : ليس هناك ما يدعوك الى التبرّم ، وأنت مَنْ
عُرِفَتْ سَعَة صدر و بعدَ نظر ، وحسن كياسة . فقلت لها :
أليس يؤلمك كما يؤلمني أن ترى كلّ زوجة تُمعن في شهوتها دون
اعتبار مصلحة المجموع ؟ ألسنا هنا متكاتفات متضافرات على
تحقيق سعادة الأسرة بكاملها ؟ ألا يجب على الفرد أن يضحي
من مطامعه في سبيل تحقيق الوحدة والانسجام والسرور للجميع ؟
قالت : ولكنك تعلمين أن الطبائع في الخلوقات هي من صنع
الخالق ، وليس للمخلوق حرية تكوين طبائعه . ومن جهة أخرى
من ذا الذي تصفو مشاربه ؟ ومن ذا الذي يُقرّ بعيوبه ؟ وأغلب
الظن أن أترابك يرون فيك ما ترين فيهن . ولو سألت إحداهن
عن رأيها فيك لوجدت مجالا للقول ذا سعة كما تجدن . قلت لها :

إننى لا أدعى الكمال لنفسى ، ولا أبرئها من مستقبل الطبائع ،
 وأنا مستعدة أن أسمع رأى غيرى فى ، وأن أروض نفسى على
 ما يشتهي إن كان فى هذه الرياضة ما يُحقق السعادة لجميع
 الأسرة . وأنا أحكمك فى أمرنا وأطلق لك حق الفصل فيما
 يزعمون . قالت : أشهد إنى لأرى فىك الاعتدال والحصافة
 والنبيل ، ولست فى حاجة إلى أن تحكمنى ، فليس هناك
 موجب لتكوين قضية يحكم فيها قاض . قلت : إنك تتكلمين
 مستوحية صفاتك وسجاياك ، وما أرى النعوت التى خلعتها على
 إلا نعوتاً لك أنت . فدعينا من تبادل المدح ولنشترك معا فى
 النظر فى معالجة هذه الطبائع ، عسانا نصل الى تحقيق الوئام
 والتعاون على أحسن حال . وأنت يعنيك هذا الامر كما يعينى
 فلست بغريبة عنا ، ولست بقادرة على أن تنفض يدك مما يجرى
 بيننا . وإذا وقفنا إلى الوصول إلى علاج حاسم فسينالك سهمك
 من السعادة التى ننشدها ، وأنت بعد مسئولة عن تحقيق السعادة
 للأسرة بكاملها لأنك إحدى أفرادها العاقلات ، ومسئولية
 العاقل فوق مسئولية الجاهل . قالت : نعم ما تقولين . فهأتى
 رأيك . قلت : لا أريد أن أعرض عليك رأياً ، وإنما أريد أن

أحاورك رجاء أن نصل معا إلى نتيجة فاصلة / ألت ترين أن
 جميع الطبائع ناتجة عن طبيعة الحياة التي يحياها الخلق . فالحسد
 مثلا ناتج عن حرمان الحاسد من النعمة التي يتمتع بها المحسود ،
 والكذب ناتج عن حرمان الكاذب من الوسائل التي تُبلغه
 ما يريد . والنفاق ناتج عن خوف المنافق من سطوة من يُنافق .
 والشره ناتج عن خوف الشره من فوات ما يشتهيهِ من طعام أو
 شراب . والخيانة ناتجة عن فقدان التساوى بين الناس ، واستئثار
 بعضهم بالسلطان دون بعض ، ورغبة الخائن في تحدى تلك
 السلطة والقضاء عليها أو مخادعتها مهما كلفه الأمر . وأستطيع
 أن أسرد عليك سائر العيوب والطبائع ، وأن أثبت لك
 أنها ناتجة جميعها عن اختلال في النظام ، أو طغيان في الحكم
 أو استبداد بالرزق ، أو استئثار بالخيرات / فقالت : أتريد أن
 تزعمي أن من اليسير محو الطمع والظلم والأثرة والفساد وما إلى
 ذلك من العالم ؟ أتريد أن تفعل أنت ، أنت نفسك ما عجز
 أحكم الحكماء عن فعله . قلت أنت تتناولين البحث من قاعدة
 الهرم فتتناولين العالم أجمع . وأنا أحب أن أبدأ من رأس الهرم
 فأتناول هذه الاسرة التي تخضع لمزاج واحد وبيئة واحدة ، وحياة

واحدة / ولست أقصد أن أظهر لك بمظهر الأناي الذي لا يعنيه من المخلوقات سوى بضعة أفراد ، ولكني أريد أولاً أن نبداً من نقطة ثم نتوسع إلى أن نبليغ قاعدة الهرم . وثانياً ليس ما يمنع المخلوقات جميعاً أن تنظر في حياتها على النحو الذي ننظر نحن فيه ، وإن كان هناك رأى صالح أو فكرة نبيلة فليس ما يمنع انتشارها بين الناس جميعاً . قالت : إنى أعترف لك بحسن القصد ، ونبيل الغرض ولا أريد من مساجلتى إياك مقاومة لآرائك . ولكنى أسألك فى أى أسرة تحققت مثلك هذه . فلست أعرف بيئة خلت من أثر من آثار الطباع البشرية ، أو لون من ألوان المساوى الاجتماعية . ولو كان مجال تحقيق المثل العليا يسيراً لوجب أن نرى نتائجه فى بيئة من بيئات الخلق فى قديم أو حديث . ومن جهة ثانية يتراءى لى أنك أخفقت فى تطبيق مبادئك فى أسرة صغيرة قليلة الأعضاء كأسرتنا هذه . قلت : أفهم منك أنك متفقة معى على علاج المبادئ التى ذكرتها ، وأنت مختلفة معى فى تطبيقها . فإن كان الأمر كذلك فإنى أعدك أن أبذل جميع قواى فى تنفيذ هذه المبادئ بنفسى ، وفى حمل من يلود بى على تطبيقها ، وفى إقناع من لا يشايعنى بصحتها .

وناصحا ومرشدا في أثناء حياتي الجديدة . قد أكون مسرفة في حسن الظن ، وقد أكون مبالغة في اعتدادي بمواهي وكفايتي . وقد تشكين أنت في إمكان تحقيق مبادئ ، ولكني أعتقد أنك واثقة بسمو هذه المبادئ ، وبرغبتى الصادقة في تحقيقتها ، ليس لمصلحتي ولكن لمصلحة المجموع . قالت : إني أؤازرك في كل ما تقصدين منه تحقيق سعادة المجموع ، وحيي لك يمنعني من أن أحول بيدك وبين تجربة قد تشقيك أو تُرديك . وما دمت توجبين عليّ حق النصح والإرشاد فإني أبادر بأبداء نصحي إليك بأن تتريشي فيما أنت قادمة عليه ، وأن تستعيني بالرفق والتؤدة كي لا تفقدى عقلك وأملك في وقت واحد .

وما كاد ينقضي هذا الحديث حتى سمعت تربي الغيور تصيح قائلة : كفا كما استمتاعاً بالراحة والسر ، ونحن نؤدي عنكما واجباتكم . هيا أقبلا فليس الهرب وسيلةً صالحة لتجنب المسؤولية . فابتسمت تربي ابتسامة بينة المدلول وقالت : هيا فقد بدأ العمل ! ولا أريد أن أكلفك سوى أمر واحد ، وهو أن تكوني لى عوناً .

منذ اليوم الذي صممت فيه على تنفيذ مبادئ التي رسمتها لمعالجة
 أخلاق أترابي وأنا في جهاد عنيف معهم ، فقد أخذن يُظهرن
 عداوتهن لي بلا ترفق ، وكأن عداوتهن كانت نائمة فأيقظتها
 يدي . ومن أغرب ما بلوت من أخلاقهن أنهن اتهمني بما
 أظهرت من عيوبهن . فكنت إذا قلت للحسودة : مالك تنفسين
 على حب زوجي لي وحبّي له ، وأنت تعلمين أني ما تكلفت الحيلولة
 بين قلبه وقلبك ، بل ليس في مقدور إنسان أن يحول بين قلبين .
 تقول لي : أنت الحسودة . وحسدك هو الذي صور لك هذه الآفة
 فرميتني بها . وكنت إذا قلت للأكولة : إن الإسراف في الأكل
 شرٌ وخيم العواقب ، وأنت في غنى عنه ما دمنا جميعاً ممتعين بنعم
 الله على السواء . قالت : والله ما عرفت النهم إلا فيك ، وما عرفت
 وصفه إلا منك وإذا قلت للمناقمة : مالك وللمواربة والرياء
 والنفاق ، وأنت تعلمين أن ظاهراً كباطناً ، وباطناً كظاهراً ؟
 تقول لي : إنك لترمينني بدائك ، وتسترين بالصراحة والإخلاص
 كي لا ينكشف أمرُك . وإذا قلت للكاذبة : ليس ما يحملك

على انتحال الكذب ، لأنك بعيدة عن المؤاخذة ، إن عثرت
أو أخطأت ، ولا يمكن أن تستري ذنوبك بالأكاذيب ، قالت :
على لسانك نبت الكذب ، وما أعرف أنى زلت حتى أستر زلتى
بالكذب .

ويعلم الله كم حاولت أن أترفق بأترابى ، وأن أبلغ في مرضاتهن
وأن أصفَ عيوبهن ألطف وصف . ولكن أنى للرفق أن يُصيب
وقد أخطأ النصيح ، وذلل الإخلاص عند هؤلاء الأتراب ؟ .

كنت أتوهم أنهن يشعرن بالبلسم الذى أضعه على جروحهن ،
فإذا هنَّ يرين ذلك البلسم فلفلا تحشى به جروحهن .

ولما رأين مضاء عزمى ، وقوة تصميمى على ملاحقتهن ، غير
آبهة بما يقلن ، تذرعن بشر الوسائل فى مقاومتي ؛ فعقدن بينهن
حلفاً شططن فيه أى شطط ، فتعاهدن على مخالفة رأى فى كل
ما أقول سواء أحققا كان أم باطلا ؛ فإذا جاء وقت الطعام وقلت
لهنَّ : تفضلن للطعام فقد حان وقته ؛ قلن مستهزئات : يا للشره !
لقد صور لها شرهها أن الزمن أسرع فى خطاه ، وما بعد هذا
الشره شره . وإذا قلت لهن : الهواء بارد فالزمن مأواكن ، ولا
تتعرضن لشره ، قلن : كذبت وأردت أن تستأثرى بالهواء العليل

دوننا . وتعهدن على أن يسخفن آرائى ، ويبطلن أقوالى كى أققد
الثقة بنفسى . فإذا قلت لهن : أرى الصحة بادية على وجه زوجنا
اليوم ، قلن لى : إنك مغرورة تدعين ما لا تعرفين . وتعهدن
على أن يُفسدن ما بينى وبين زوجى بلا قصد ولا احتياط ، فإن
قلت كلمة صدق حملها إليه مؤولة شرّاً تأويل . فقولى لهن : إن
زوجنا بصحة جيدة حملنه له على أنه تهرّب مما يجب على نحوه
من خدمة وعناية .

على أن حلفهن علىّ وكيدهن لى لم يصرفانى عما عزمت
عليه . وما زادنى عداؤهن إلا ثقة بنفسى ، وإيماناً بصحة مبادئى ،
ووثوقاً بأنهن فى أشد الحاجة إلى من يصلحهن . وإن أعجب لشيء
فعجيبى للفضيلة كيف تذكى الرذيلة بدلاً من أن تحصرها وتقضى
عليها . ولعلّى متعجلة النتيجة كاملة ؛ فمن أول بوادر الانهزام فى
صراع الفضيلة مع الرذيلة أن تنكشف الرذيلة وتظهر بكامل قواها ،
ولا شك فى أن طبائعهن التى أخذت أعالجها ظهرت بكامل قوتها .
ولو كنّ أظهرن الرضى والاستسلام فى أول النزاع لاعتقدت أنهن
يبطنن غير ما يظهرن ، وأنهن يلتجئن إلى المواربة والنفق ليأمنن
مقاومتى لهن . وعندئذ ينتقلن من رذيلة إلى رذيلة ، بل ينتقلن

من رذيلة إلى رذائل ، ومن أجل ذلك ما أوهنتى بمقاومتهم ،
بل زدنتى إيماناً وثقة وعزيمة : إن نفسى لتشعر بروعة الجهاد إلى
جانب ما شعرت به من جلال المبادئ ؛ وما كان العنف ليزيد
المبادئ الشريفة إلا قوة ومضاء ، وما كانت المقاومة لتزيد
دوى المبادئ إلا قوة احتمال ومناعة .

أرادت تربى العاقلة أن تتوسط بينى وبين سائر أترابى حين
رأت الخصومة تزداد قوة يوماً فيوماً ؛ فجاءتنى تقول : منذ أخذت
على نفسك أن تعالجى طبائع غيرك وأنت تبلى من ضروب المحن
والأهوال ، ولم يكسبك عملك إلا صريح العداوة وعقد المحالقات ،
ولقد كنت من قبل فى غنى عن هذا كله ، فكفى عن مسعاك
والزحى نفسك ، وإن شئت أن تنشرى الفضيلة وتقمعى الرذيلة ،
فليكن ذلك بظهورك المخلوقات متحلية بالفضيلة فيروها بك حية
نشيطه ، بدلاً من أن يروها فى صورة أصوات جوفاء جامدة ،
وبذلك تأمّن الشّرّ والنزاع وتكسب العافية . قلت لها : أترين
أن العجز عافية ، والاستسلام نجاح ، والاختناق توفيق ؟ فأنت
أيتها العزيزة بين أمرين : إما أنك تؤمنين بصحة مبادئى ، وإما
أنك لا تؤمنين . فإن كنت مؤمنة فمثلك من لا يؤثر السلامة والعافية

على الاستسلام والاستخذاء . وإن كنت غير مؤمنة فقولى لى
انى ضالة . فقالت : لا أظنك تنكرين أنك أثرت كوامن البغض
والعداوة فى نفوس أترابك ، وأنت بعملك هذا أشعلت الخصومة
وأذكيت الشر ، وقد كنت من قبل فى حلٍّ من هذا ، أفما
ترين الآن أنك أفسدت الحياة من حيث أردت الصلاح ،
وأسأت من حيث طلبت الصواب ، وغويت من حيث التمت
الرشد ؟ إنك لم تعينى الفضيلة بل أعنت الرذيلة ، ولم تقوى
المبادئ الصالحة بل عززت المبادئ الطالحة . فقلت لها : إنك
تحكمين بظاهر الأمر ، ولو كنت تنعمين النظر فيما ترى لتبين لك
أننى لم أخلق جديداً ولم أبعث ميتاً ، وإنما كشفت مستوراً
وأظهرت مخبوءاً . فقد كانت علاقاتنا فى أسرتنا تقوم فى ظاهر الأمر
على المحبة والتفاهم ، وفى الباطن على المداينة والمراعاة والخداعة ،
فأصبحت اليوم تقوم فى ظاهر الأمر وباطنه على أمر واحد هو
الصرامة والصدق . وهذا غم لا غم كما توهمت ، ثم إن دعوتى
لإصلاحهن أوقفتن على حقيقة طبائعهن ، وقد كنّ إما مخدوعات
بأنفسهن وإما مكابرات ؛ والآن ظهر لهن من يريهن طبائعهن على
حقائقها ، سواء أرضين أم لم يرضين ، ولا بد يوماً من أن يرين

صدق تصويرى طبائعهن وإخلاصى لهن ، وأن يرعوين عن ضلألهن ، ولولم أكشفهن لظللن يعمهن في غوايتهن . وهذا ولا شك غنم لا غرم ثم إن موقفهن منى وخصومتهم لى جعلاً الفضيلة والرذيلة متقابلتين وجهاً لوجه . فهما الآن فى صراع عنيف ، وإن كنت مؤمنة بمبادئى - كما قلت - فلا بد أن تشهدى بعينيك ظهور الأولى على الثانية ، عاجلاً أو آجلاً ، ويكون عملى حينئذ قد عجل انتصار الحق على الباطل . ولولم أفعل ذلك لتأجل هذا الانتصار حيناً آخر من الدهر . وليس ألدّ للنفس من أن تشهد صرع الرذيلة بأم عينيه . وهذا ولا شك غنم لا غرم .

فأنت ترين إذن أنى لم أخفق فى مبادئى ، ولم أعن الرذيلة على الظهور كما تراءى لك فى بدء الأمر . فقالت : أشهد أنك لمرزوقة العزم والصلابة والإيمان . فقلت لها . أعيينى بنصحك ، وبصرينى بعيوبى فذلك أخلق أن يعجل لى التوفيق . فأسرعت إلى وقبّلت رأسى قائلة : منك النصيح ، وبغيرك العيوب ، ولك التوفيق . فزادنى كلامها ثقة بنفسى « وإيماناً بمبادئى ، واستبشاراً بالظفر .

بعد أن أشرف زوجنا على البُراء من مرضه ، ومكث أياماً يستجمع قواه ونشاطه ، إذ به ينتكس فجأة ويعاوده المرض بصورة أشد فيلتزم مأواه في حالة صراع شديد مع آلامه . كان جسمه في هذه المرة أقل مقاومةً للمرض ، وبدأت عليه مظاهر الضعف والانحلال ، فذهب ذلك اللون القرمزي من عرقه ، وحل محله لون أسمر أغبر ، وذهب الإشعاع الذي كان يتدفق من عينيه ، وعاد النشاط الذي كان يبدو في حركاته سكونا .

وكنّا حين ندخل عليه ونراه في مرضه نُعاني الألم المُبرّح ، وتتقطع أفئدتنا عليه ، ويعشانا حزن شديد . كنتُ وزوجاته نعرض عليه خدماتنا ونلج عليه في أن لا يتردد في تكليفنا إسعافه وتقديم ما يحتاج إليه . ولا شك أنه كان يلمح في أصواتنا الإشفاق والإخلاص ، فكان لا يتمالك أحياناً من إظهار ألمه ، ويسألنا أن نقدم له ما يخفف آلامه . وما كان ما نقدمه له من طعام وشراب ودواء بموصله إلى ما يريد . إن الأصحاء الذين يُشرفون على معالجة المرضى يستطيعون أن يفعلوا كل شيء في

سبيل راحتهم ، إلا شيئاً واحداً هو ردّ الصحة المفقودة ، والعافية
 المسلوقة . ويعلم الله أنى كنت فى حال لو أستطيع معها أن
 أشاركه فى صحى وعافيتى لما تأخرت . وكل ما يملكه الخلق
 يمكن أن يُعار عدا الصحة فإنها لا تعار ، ولا تنتقل من شخص
 إلى آخر .

كان زوجنا إذا اشتدّ ألمه ، وشعر بالضعف يسرى فى دمه ،
 يتمنى لو أنه يستطيع أن يخرج إلى الساحة ليستنشق الهواء كما
 كان يفعل فى السابق ، ذلك الهواء الرخيص المبتذل الذى كنّا
 نعبّ منه حتى نملّه . وأعجبا للمريض إنه يرى الصحة أعزّ شىء
 عنده فى حالة مرضه . فإذا ما لبس ثوب العافية وعاد إلى حياته
 المألوفة ، غرق فى لجة النسيان ولم يفطن لقيمة الصحة ، حتى
 الأعمال العادية التى يتبرّم بها السليم فى كثير من الأحيان يتمنى
 وهو مريض أن يعود إليها مؤثلياً على نفسه ألاّ يتبرّم بها . والصحة
 لا قيمة لها فى نظر السليم ، أمّا المريض فيراها أغلى ما يمكن
 الخلق أن يملكه فى حياته . ولو كان الخلق يقدر الصحة فى حالة
 الصحة لحرص عليها وسعى لدوامها . ولكنه للأسف تغمره فى
 حال صحته مشاغل الحياة بله سخائف الحياة .

ظل زوجنا العزيز يعاني تباريح المرض أسبوعاً كاملاً أسلم
 في نهايته روحه لباريها . ويل لى من ذكرى تلك الساعة التي
 رأيته فيها في صراع عنيف مع الموت . كم كنت أتمنى لو سبقته
 إلى القبر وسلمت من رؤيته على تلك الحالة . وفي أواخر ساعات
 حياته رأيته وكأنه ألقى سلاحه وكفّ عن الصراع ، إذ تبين له
 أن خصمه أقوى من أن يقهر ، وأشد من أن يغلب ، فبدت
 على وجهه صفرة الموت ، وتراخت أطرافه ، وهدأت حركته ،
 وجهد الدم في عروقه .

ما كنا نستطيع أن نحادثه في تلك الساعات إذ كان لسانه
 معقوداً وفمه مغلقاً ، في أكثر الأوقات . ولكننا كنا نلمح في
 وجهه أثر الصراع العنيف الذي يبدو على المستميت في القتال ،
 وأغلب الظن أن تلك الساعات كانت ساعات صراع بينه وبين
 فريقين من الأرواح : الفريق الأول أرواح طاهرة صالحة رفيقة
 مؤنسة مؤمنة ، كانت تتحدث إليه في خفية عنا ، داعية إياه إلى
 التجلّد والصبر ، والفريق الثاني أرواح شريرة قاسية موحشة ،
 تنكّل به أشد تنكيل ، وتدخل الرعب في قلبه . وأرى أن
 الفريق الأول هو حسناته تنزيهاً بزي الملائكة الأبرار ، والفريق

الثاني سيئاته التي كانت تتزيا بزى الشياطين القساة. ولا بد أن يكون الفريقان قد التحما مراراً متصاولين متبارزين إلى أن جاء المبعوث من الله فانتزع روحه من كلا الفريقين ، ونقلها إلى حيث قدر لها أن تنقل .

وما أن أسلم زوجنا روحه حتى هرعنا إليه وانكبيننا عليه نذرف الدموع مترحات متوجعات . كنا نبكي وننتحب ما شاء لنا البكاء والنحيب . ولكننا لم ننتفع بما ذرفنا من دموع . ورأينا أن التجمّل بالصبر هو آخر سلاح المفجوع ، فنقلنا زوجنا من مأواه إلى مثواه . وبعد أن عدنا إلى مستقرنا عاودنا التوجع والتفجع حتى كدنا نشعر أن نفوسنا تحاول أن تجد لها مخرجاً من أجسامنا ، ويا ليتها خرجت . وأعجباً لتلك القوى وذلك البأس وذلك الزهو أين ذهبت ! هل يفتن الخلق في أثناء حياته إلى أن جميع ما يفتخر به من زهو وقوة وسلطان ، وما يُزهى به من ملك وجاه ، وما يعتز به من أصحاب وأحاب ، إن ذلك جميعه لا يغنيه في ساعة ما فتىلاً ، وإن جميع ذلك يعود في ساعة ما إلى العدم . إن ما يفتخر ويعتز ويُزهى به الخلق يسقط معه ، كما يسقط الريش الواحدة تلو الأخرى ، فيعود كما خلق حفنة من

تراب تذوب كما يذوب الملح مع تعاقب الأيام . وإني إذ أطلق
لفكري التأمل في هذه النتيجة التي لا مناص منها أعجب للمخلوق
كيف ينسى تلك الساعة الرهيبة ، فيمعن في التجني والإسراف
والزَّهْو والكِبَر أعجب للمخلوق كيف ينسى وهو يذ كر كل يوم
بتلك الساعة الرهيبة بما يرى من أموات ، وما يسمع من أصوات
ناعيات . إنه لو فكر في حاله التي سيصير إليها لما ظلم ، ولا أساء ،
ولا خدع ، ولا نافق ، ولا عَرَف سوءاً في حياته قط . ولوتذ كر
كلُّ مخلوق تلك الساعة لكان العالم أحسن حالاً ، وأنعم بالاً ،
وأسمى خلقاً ، وأشرف عملاً ، وأحرص على سعادة المخلوقات .
ولكن المخلوق ينسى مصيره .

أحقاً إن ذلك الزوج الصالح ، وذلك الجسم القوي المتين ، وتلك
المزايا العالية ستصبح بعد حين حفنة من تراب ؟ أجل إنه صائر
إليها لا محالة ، ولكن صفاته وشمائله ستنبجو بنفسها وتعود إلينا
حيّة كما شاهدناها . إن الجسم المصنوع من المادة هو الذي يُصبح
حفنة من تراب ، وأما الشمائل والأخلاق فتلك ليست من مادة
ولن تُصبح حفنة من تراب . فنحن اليوم إذ نعود إلى مأوانا
لا نقف له على أثر ، ولكننا نحس إحساساً شديداً بتلك الروح

العظيمة وتلك السجايا النبيلة . ولو كانت مصنوعة من نفس المادة
التي صُنِعَ منها جسمه لما أحسسنّا بها . ألا يجب علينا بعد هذا
أن لا نسرف في رعاية الجسم وتقديس المادة على حساب الروح
والأخلاق والمبادئ . إن المخلوق الذي يحب المادة لا يلام على
حبه إياها لأن جسمه صُنِعَ منها ، والتجاذب بين الجسم والمادة
لا يمكن أن يُصرَم ، ولكن أليس هناك في الجسم وغير الجسم
أشياء وأشياء ينبغي للمخلوق أن يُحِبَّ من أجلها الروح والمبادئ ؟
ألا يجب عليه أن يؤثر الثاني على الأول لأن الأول إلى فناء
والثاني إلى خلود ! ألا يجب عليه أن يعطى المادة ما تستحق
دون إسراف وأن يعطى الروح ما تستحق دون قبض أو تقتير .
ليس لي من وراء هذه الأفكار ما ينفع ، ولكني في حقيقة
الواقع أرى فيها عزاء لما أنا فيه من حزن مبرّح . وإذ أعود إلى
عقلي أستمد منه التجلد والصبر يزيد إيماني بقوة الروح وقيم
الفضائل وتزيد ثقتي بمبادئ التي ما برحت أفكر في بثها
بين أترابي .

اللهم قد جفّت دموعى لكثرة ما بكيت على ذلك الزوج
الصالح - بلّ الله ثراه - ولكن ما نفع البكاء ولا العويل .
والذى نفسى بيده لو كان بكأى عليه يردّه إلى لبكيت ثم بكيت
إلى ما شاء الله . ولو كان حزنى وتوجّع يردّانه إلى الحزنت
وتوجعت إلى ما شاء الله . بل لو كنت أستطيع أن أفديه بمهجتى
لفعلت بلا تردد ولا توان . وإنى يوم تمنيت أن أمتحن بصحّتى
ودمى وروحى لأثبت وفأى ما شططت ولا بالغت .

واجفيعته ! لقد انهار عمود بيتنا ، وحامى حمانا ، وأسد عريننا ،
وأصبحنا نهبة لكل غاز . فمن يردّ عنا اليوم العادى والباغى ؟
ومن يدفع عنا الشر والعدوان ؟ لقد أصبحت حياتنا بعد زوجنا
أمرّ من العلقم . ولولا أن فى تمنى الموت نكرانا لنعمة الخالق
لتمنيته . ولولا أن الانتحار ثورة طائشة على حكم الله لالتجأت
إليه فى رضى واطمئنان .

إيه أيها الزوج الصالح ! لقد عمرت مكرّم الخلق ، محمود
السجايا ، مبرور الأعمال ، متحليا بأجمل ما يتحلّى به مخلوق فى

هذه الحياة . وغادرتنا فغادرت وراءك حسرات مستقرات في
 الأعماق ، وكلوماً بالغات ساكنات في الحشايا والضلوع ، وجفوناً
 مقرحات مغرقات بالدموع ، ونساء باقيات نأحات ماهن من
 نصير ، وأيامي ثاكلات نادبات ماهن من معيل .

اللهم إنا نعتصم بك لتقينا شر السخط على نعمتك التي
 أنعمتها علينا . اللهم اغفر لنا وارحمنا وجمّلنا بالصبر .

مارزونا بهين حتى نساء ، وما مصيبتنا ببسيرة حتى نتحملها .
 فإن زوجنا يتمثل لنا في كل مانراه . في الطعام وفي الشراب ، في
 الأرض وفي الهواء ، في المأوى وفي الساحة ، في السكون وفي
 الحركة ، في الليل وفي النهار ، وفي كل وقت وفي كل مكان .

إنا نخرج اليوم في الصباح نلتمس الطعام والشراب على غير
 هدى ، فواحدة تشرق وأخرى تغرب ، وهذه تمشي وتلك تجلس
 ولولا هذا السور الذي يحيط بـأوانا لآنحل عقدنا ، وتشتت شملنا
 ولولا فضل من عقل ، وبقيّة من إيمان لحل بنا الهلاك .

كأنت تربي العاقلة الرشيدة في هذه الأيام السوداء أرجحنا
 عقلاً ، وأقلنا استسلاماً للأحزان وأحرصنا على جمع الشمل . فقد
 جمعتنا يوماً وقالت : إني أعلم ما وقع بينكن ولا أحسبكن بعدما

أصابنا من فجیعة بعائدات إلى ما كنتن فيه . ونحن الآن نجابه
 خطر الغزو والعدوان ، فإن عدتن إلى ما كنتن فيه من خصام
 وخلاف فسيبُطشُ بنا جميعاً دون رحمة ولا شفقة ، وإن اعتصمتن
 بحبل الحبة والوفاق وقفتن متكاتفات ورددتن بوارد الاضمحلال .
 ونحن وإن كنا إناثا ضعيفات فإن الله معنا مادمننا مع أنفسنا ،
 فضعیفان مؤمنان متحدان أقوى من قوى باغ معتد . لأننا نستمد
 قوتنا من الاتحاد والحق ، ويستمد عدونا ضعفه من البغى والعدوان .
 ونحن إن وقفنا في وجه العدو الباغى سواء أذكرأ كان أم أنثى
 جسماً أم روحاً فلا نقف إناثا في وجه ذكر ولا ضعيفات في وجه
 مسلح ، ولا أجساماً في وجه جسم هائل ، وإنما نقف حقاً في وجه
 باطل وقوة في وجه بغى ، وإيماناً في وجه كفر ، وخيراً في وجه
 شر . فتماسكن وتكاتفن والله يحرسكن ويرعاكن .

كانت تربنا الرشيدة تتكلم وصوتها يدوى في آذاننا كأنه
 مزوج بصوت من الخالق . وما كادت تنتهى حتى فتحت فمى
 لأوازرها في دعوتها ، ولكنى ما كدت أنطق بكلمة حتى صاحت
 بى إحدى أترابى ممن ترعمن الحلف على تقول : اصمتى فالكلمة
 لى . فتولانى الجزع خشية أن يبدر منها ما يفسد الدعوة الطيبة ،

ولكنى سمعت منها كلاما أدهشنى . قالت : أيتها الأخت العزيزة
لقد تكلمت بإيمان وإخلاص عظيمين ؟ ولكنك أسأت الظن
بنا ، وقدرت ما لم يدرك فى حسابنا . أتظنينا من البلاء بحيث نفعل
عن حاضرنا ومستقبلنا . فأى مخلوق يلتجئ فى مثل هذه الحال
إلى شقاق فمصييره التهلكة ، ليس لنفسه فحسب ولكن لنفسه
ولغيره على السواء . وقامت ترب ثانية وقالت للسابقة : ليس والله
الحاضر ولا المستقبل هو الذى يدعونا إلى الاتحاد والوفاق وإنما
هو الماضى . وما كادت تنطق بهذه الكلمة حتى خنقها العبرات
وعجزت عن تنمة الكلام . ومارأيناها تبكى حتى هطلت دموعنا
كالطر يتساقط بعد انحباس . وكأن الصبر خاتم منع انصباب
الدموع ففضه بكاؤها . وانتهالت العبرات . وفى تلك اللحظة
الرهيبية قامت كل واحدة إلى تربها التى بجانبها تكفكف عبراتها
وتواسيها وتعزيها . وكان بجانبى تربى التى وصفتها بالحسد . والله
لقد كانت أحذب على من نفسى . فما كدت أراها مواسية حتى قمت
إليها وقبلت عينيها وقلت لها سبق أن أسأت الظن فاغفرى لى سوء
ظنى ، واعفى عنى . فقالت : أى سوء ظن وأى غفران تذكرين
فوالله لقد كنا نرى فى عينيك الحب الخالص ، والعطف الصادق ،

والتضحية الغالية . فصاحت تر بنا الرشيدة : لكنَّ الله ! لقد كنتن
أفصح نطقاً ، وأبلغ عملاً . ووالله إنكن لتثبتن أنكن أطيّب منى
قلباً ، وأوسع منى صدرًا . وقد كنت أخشى أن تحل بنا الهزيمة
بعد الحزن والألم . فكنت متجنّية عليكن ، إذ تبين لى أن الألم
جمع بين قلوبنا بعد أن طهرها مما شابها . فقلت أيتها العزيزة إنه
لما يسوؤنى أن أراك تعتقدين أن الألم لا الحب هو الذى وحد بين
قلوبنا . حقاً إن الألم بليغ ونفاذ ، ولكن الحب أبلغ وأنفذ . ونحن
وإن جمّعنا الألم فى هذه اللحظة فسيجمّعنا الحب طوال العمر .
إن الحزن يوحد الحزاني ، والحب يوحد المتحابات ، وحياة المخلوق
تقوم على الحب لا على الحزن . فلنعش إذن متحدات متكاتفات
على الحب دون الحزن . لقد كان زوجنا فى حياته سمط العقد
وعمود البيت ، فلنحافظ على هذا الجمع بعد مماته ، ولنتعاون على
بناء بيتنا من جديد . وقت وقامت الأتراب ودخلنا مأوانا
نلتمس الراحة فى هدوء الليل .

١٤

لله دنيا الحب ما أجملها وأقواها ، إنها جميلة لأنها تشيع الحنان والرحمة والتفاهم والإخاء ، وتبعث الرضى والسرور ، والبهجة والاطمئنان . وهى قوية لأنها قادرة على أن تصنع ما يُعجز جميع القوى .

إن الحب نور يملأ القلوب ويوحى إليها الطهر والوداعة والرفق والشفقة والحنو والحنان . إن الحب إذا دخل قلباً طهره من الجشع والحقد والبغض وكل رذيلة تتصل بالخلق . وإن الحب قوة نشيطة مسيرة إلى الخير والصلاح . إن الحب إذا دخل قلباً قسمه مشاعاً للناس أجمعين ، وعوض عن كل جزء موهوب أجزاء مضاعفة . الحياة بلا حب عذاب دائم ، ونار محرقة ، ومصائب متواليات . والحياة بالحب نعيم دائم ، وسعادة مقيمة ، وبهجة عامة ، ومنتعة لا نفاد لها

لقد كنت أعتقد أنى مقبلة على عمل يحتاج إلى براعة وحسن حيلة ، حين أخذت على عاتقى أن أعالج طبائع أترابى ، وكنت أقدر لكل داء دواء . فما أن أوينا إلى مضاجعنا فى مساء ذلك

اليوم الذى اجتمعنا فيه وتبادلنا المحبة والإخاء ، حتى أوت
تلك السجايا إلى مقرها الأخير . ومنذ الصبح الذى أشرق
علينا بعد ذلك الاجتماع ، ونحن نمتع بأهناً حياة . ، وكأن الله
أعاد خلقنا من جديد ، أو أعاد علينا قلوبنا بعد أن طهرها كل
مظهر ، فلا حسد ولا حقد ، ولا خداع ولا كذب ولا رياء .
أى قوة فى الوجود تستطيع أن تظهر النفوس من مطامعها ، وتغسلها
من أوهامها ، وتؤلف بينها إيلافاً لا يناله ثلم ولا صدع
وإن أعجب لشيء فعجبي لهذه المخلوقات ، التى لا تتوسل
بالحب لتتغلب على ما ينشأ بينها من خلاف وتزاع وخصومات .
فما من مشكلة تستطيع أن تثبت أمام الحب ، بل لا يمكن أن
توجد مشكلة فى عالم الحب . فالحب والخلاف لا يجتمعان فى
صعيد واحد . لقد اختبرت هذه الحقيقة بنفسى . فبعد أن كان بيتنا
معرضاً للدمار والفناء بسبب تنازع الأهواء وتنافر الآراء ،
وتشعب المطامع ، وتضارب الطباع ، أخذ يقوم على أثبت
أساس وأمتن قاعدة ، هو الحب . ليس فى الوجود ما يدعو إلى
الاختلاف وليس فيه ما يدعو إلى الطمع والجشع ، وليس فيه ما يدعو
إلى الظلم والطغيان . أليس الحبُّ وفيراً تنبته الأرض ، وتذروه

الرياح حيث نعلم ولا نعلم؟ أليس الماء من رحمة الله يرسله إلى الناس
أجمعين بلا محاباة ولا تفرقة؟ أليس الهواء ملء السماء يناله من
يريد؟ فعلام إذن الخلاف والطمع والاستبداد؟ ثم أليس للمعدة
حد لن تتعداه؟ أليس للجسم طاقة محدودة لا سبيل إلى توسيعها؟
فعلام إذن الجشع والاحتراب والتنافس؟ لقد كنا فيما سبق
إن لمناخبة سمينة أو قطعة من حلواء أو هنة من خضرة رطبة،
تشور في نفوسنا ثائرة الطمع والأثرة، وتهجم كل منا على تلك
الطعمة لتستأثر بها دون صديقاتها. أجل كنا نختلف في نظرنا
للطعام فمننا من تعدو بسرعة الريح، ومننا من تتأد في سيرها، ومننا
من تضرب بالمنناكب، ومننا من تترفق، ومننا من تتمنى أن
يسقط الطعام بين يديها. وكل ذلك بدافع الطمع والأثرة.
ولو كنا نترك كل واحدة تظفر بما تريد من طعام أو شراب لبلغت
الكفاية وبرئت من الطمع والمزاحمة. ونحن جميعاً نعلم أن الرزق
موفور لجميع المخلوقات، وأن الموت جوعاً من أندر ما يقع في
الوجود. ومع ذلك تنهافت على السلب والنهب، وتخليص اللقمة
من فم الغير. كنا نعيش مدفوعات بشهواتنا الجسمية، وأطاعنا
المادية، وما حكمنا العقل والقلب في جميع هذه الحالات. نعم قد

يعجز الضعيف عن الوصول إلى ما يريد ، وقد يقعد المرض
 الخلق عن تحصيل قوته ، وقد يشغل المعيل بعياله عن توفير
 أسباب الرزق لهم . فهذه حالات لو حكمنا فيها العقل والقلب لما
 كان يجب أن توجد . فكل مخلوق معرض للكبر والمرض
 والمشغلة ، ولو كنا نحب لغيرنا ما نحبه لأنفسنا ونحب لأنفسنا
 ما نحبه لغيرنا لساعدنا الضعيف حتى يقوى ، والمريض حتى يبرأ ،
 والمعيل حتى يتفرغ لنفسه .

ولكن الخلق محرومون من عقولهم وقلوبهم ، وكأنهم لا يعيشون
 إلا بمعدهم وأجسامهم . وعند ما يعرض لهم ما يغذى أجسامهم
 يضيعون عقولهم وقلوبهم . ونحن اليوم قد برئنا من هذا جميعه بعد
 أن أخذنا نحيا حياة جديدة ، قائمة على الحب الخالص ، وبعد أن
 رأينا في وفاة زوجنا مصير ذلك الجسم الذي نبالغ في الاحتفال
 به ، وما هو إلا حفنة من تراب . نحن اليوم نسير جميعاً جنباً إلى
 جنب ، فإن رأينا حبة سمينة دفعت كل منا صاحبته إليها دفعاً ،
 وما تتناولها إحدانا إلا على استحياء . فخدماً للحب على ما صنع ،
 وهداً لله على ما أنعم .

مضى على تربي الرشيدة أيام وهي ملتزمة المحضن مترخمة على
بيضها ، وكم نحاول أن نغريها بالخروج معنا فلا تفعل . لقد كانت
في الأيام الأولى تتناول الحب الذي ننقله إليها ، أما اليوم فقد
امتنعت عن تناوله .

ليس من الحق أن أعذها ولكنني أشعر أنها انخرفت عن
مألوف عاداتها ، فهي في غالب الوقت صامتة لاتكاد تنبس بكامة .
وهي في حالة اضطراب يثيرها ويهيئها أتعف الأمور فاذا ألحنا
عليها بالطعام نفرت عنا وعبست ، وإن دنونا منها نستفسر عن حالها
تبرمت وتكدرت . وإن مس جسمها شيء هاجت وماجت .

دنوت منها أمس وقد ضمّر جسمها ، وغارت عيناها ، واصفرّت
وجنتاها ، أتوسل إليها أن تشفق على نفسها . قلت لها : يا حبيبتى
ليس ما يوجب بقاءك في المأوى محرومة من الطعام والشراب .
لست أتمس منك مشاركتنا في التنزه والرياضة ، ولكنني ألح
عليك أن تتناولى الطعام والشراب في أوقاتهما . إنك يا حبيبتى
تجهدين جسمك جهداً يؤذيك . فقالت لى : أيتها العزيزة ،

لا تقسى علىّ باليوم . فلو كنتِ مكانى لفعلتِ ما أفعل . وأشاحت
 بوجهها . فانتقلت من مكانى إلى حيث أرى وجهها وقلت لها
 وأنا أصدق إلى عينيها الغائرتين : يا حبيبتى ، قد يكون ما تقولين
 وقد لا يكون . فلست أجادلك ، ولكنى أدعوك بل أرجوك أن
 تترفقى بنفسك . تعالىّ معى لنتناول الغداء معاً . تعالى وكلى مرة
 واحدة فى اليوم . فرفعت إلى عينيها الذابلتين وقالت : أخشى أن
 يُضجرنى إلحاحك فأتفوّه بما يكدرك ويكدرنى . إفهمى ما أقول :
 لست أملك حرية العمل . فقلت : يا أختى الحبيبة ، أنت مثال
 العقل والكمال ، وقد كنا نستمد منك الحكمة والرشاد والنصح
 وما تبرمت بنا ، فما الذى غيرك الآن ؟ قالت : أو ما ترين ما أنا
 عليه ؟ قلت بلى ، قالت : أحتاجين إلى شرح ؟ قلت : إن ما أراه
 لا يبرّر إمساكك عن الطعام ، وانصرافك عن نفسك كل هذا
 الانصراف . قالت : أنت ترين ظاهر حالى ولا ترين باطنه .
 قلت باسمه : أو ترين أنت باطن حالك ؟ قالت : يا أختى ، إنى
 لا أرى باطن حالى ولكنى أشعر بأن قواى جميعها منصرفة عن
 نفسى انصرفاً لا خيرة لى فيه . قلت : أو ما تشعرين بحاجة إلى
 ما يحفظ عليك نفسك من طعام أو شراب ؟ قالت : إنى لا أشعر

بنفسى هذه حتى أشعر بما تطلبه من غذاء ، قلت : عجيباً ، أما
 تشعرين بالحياة تدب في جسمك ؟ قالت : انظري يا أختى .
 ورفعت كنفها عما تحتها ، فنظرت وقالت : هم الأجنة أليس
 كذلك ؟ إني ما رأى جديداً . قالت : أدنى قليلاً . فدنوت ،
 فقالت : ألقى بسمك برفق . فالتقيت بسمعى ، وإذا حركة
 خفيفة تدب في داخل الأجنة . قلت : أختى ما الذى أسمع ؟
 قالت : روحى تخفق فى الداخل . قلت : يا لله ! روحك ! أوتنقل
 الروح من مكان إلى آخر ؟ فابتسمت وقالت : هو ما تسمعين ،
 وسترين بعينيك عما قريب مصداق ما تسمعين . قلت : عجلى
 القول وأزيلي الفزع من نفسى . قالت : لا تفزعى يا حبيبتى ،
 إن الله الذى أودع فينا سر الحياة هو الذى ينقل هذا السر إلى
 هذه الأجنة ، وهو الذى يبعثها حية تدب على الأرض كما ندب !
 قلت : أو ما يخفيك انتقال روحك إلى غيرك ؟ قالت : يخيفنى ؟
 إنه يبعث فى شعوراً لا أستطيع أن أصفه لك مهما أوتيت من
 بيان . إني أشعر أنى أسعد مخلوقة على وجه الأرض . إن حبي
 للحياة أفرغ فى هذه الأجنة ، ولكنه سيعود إلى مضاعفاً حين
 أرى هذه الأجنة تدب حولى . قلت : أتريد أن تقولى إن

هذه الأجنّة قطعة من نفسك؟ قالت: أقصد أن أقول إنها
أرواح منتزعة من روحي، فأنا الآن أشهد انتقال روحي إلى
جيل قادم، بل إلى أجيال متعاقبة على مر السنين... فأسرعت
إلى يدها وأكببت عليها أغسلها بدموع الفرح، اشتراكاً معها
ببهجتها. فأنحت ورفعت رأسي وقالت: يا أختي، أشكر لك
مشاركتك إياي في فرحي. فقلت لها: أيتها الحبيبة الشكر لك
فأنت التي حلت بك نعمة الله، وأنت التي ستدخلين الفرح إلى
قلوبنا وتعوّضين علينا ما فات... فقالت: يا أختي، ما سيأتي
لا يعوض ما فات. وما كان للمستقبل أن يعوض الماضي.

وفيما نحن في الحديث إذا بها تلتفّض فجأة وتقف كالحيوان
المفترس حين يلمح فريسته. فزعت لمنظرها وصحت: أختي
مالك؟ فقالت: أنظري وراءك، فنظرت وإذا وجه غريب
يلوح من بعيد، فقلت: يظهر أنه مخلوق ضعيف لا خطر له.
قالت: وما يريد؟ وانطلقت كالسهم نحو ذلك الوجه، وریشها
يضطرب اضطراباً شديداً. فلحقت بها. وما كاد ذلك الوجه
يراهها حتى توارى عن الأنظار. فهدأت روعها ورجوتها أن تعود
إلى مأواها. فقالت: لا أطيع أن أرى غريباً في هذه الديار...

فقلت : نحن نفديك بأرواحنا . قالت : إنك لا تستطيعين أن تدفعي الشر ، بل لا يستطيع كل من في البيت أن يدفعه ، ولكني أنا وحدي أستطيع أن أرد العادي مهما اشتد بأسه ، فإن الله يمدني بقوةٍ تستطيع أن تقف في وجه كل عدو ، وإن كان بقوة النمر ، قلت : ولكنك ضعيفة نحيلة ، قالت : أخطأت ، إني أقاوم مقاومة من يستمد القوة من الله ، وقوة الله لا تُقهر . ولم تعد إلى مأواها حتى تيقنت أنها وأجنتها في مأمن من كل شر فتعجبت لذلك الجسم النحيل الضئيل كيف دبّت فيه قوة ثور شرس في لحظة واحدة ! وأردت أن أتيقن من ذلك الوجه الغريب ، فخرجت أبحث عنه وراء الجدار بعد أن تركت صديقتي رابضة في مأواها تسهر على أجنتها بعينين كالجزرتين .

١٦

ولم ألبث طويلاً في البحث حتى اهتديت إلى ذلك الوجه الغريب ولشدّ ما دهشت حين رأيت مخلوقاً مثلنا ، نحيل الجسم ، منهوك القوى ، زائف البصر ، ترتعد فرائصه ارتعاداً شديداً . انحنيت عليه برفق وقلت : مَنْ هذا ؟ فقال بصوت متقطع :

طاري غريب بأئس ، فحملت في وجهه وإذا هو أنثى مثلنا فأخذت
بيدها ، وسرت بها إلى الساحة . وما أبصرتنا الأترابُ حتى
هرعن إلينا وقلن ما الخبر فقلت : طاري مسكين التجأ إلى مأوانا ،
فلنبادر إلى إسعافه ؛ فذهبت ترب تحضر الماء ، وأخرى تحضر
الحَبَّ ، وجلست أنا بجانبها ، أطيَّب نفسها ، وأشدَّ عزيمتها ،
وبعد وقت قصير استعادت قواها واستطاعت أن تنبئنا عن حقيقة
حالتها . فقلت لها : أيتها الأخت العزيزة ، ما الذي دفعك إلى هذا
المأوى . فقالت : كنت جائعة عطشى ، خائرة القوى فخرجت
أتمس ما يسد الرمق ، فخرّني القدر السعيد إلى مأواكن ،
وما كدت أراكن من وراء الجدار ، وأتمس منكن المعونة حتى
رأيت في عيني إحداكن شرّاً رعبني ، فتسترت وراء الجدار ،
وما أطق الكلام . قلت : أليس لك مأوى أيتها الأخت ؟
قالت : لى . قلت : أأست تجددين فيه الطعام والشراب ؟ قالت :
ومن أين لنا الطعام والشراب ؟ قلت : الحَبُّ في الأرض ؛ والماء
كثير . قالت : في غير مأوانا . نحن أسرة كبيرة ، كثيرة العيال ،
رقيقة الحال ، نبحث عن الطعام فلا نكاد نصل إلى ما يسد الرمق ،
ونحن فوق هذا في قتال دائم ، لا تكاد إحدانا تقع على حبة سميكة

أوهنة رطبة حتى تهجم عليها سائر الأسرة . فإن كانت قوية
نشيطة شرسة فازت بنصيبتها بعد عراك وفزع ، وإن كانت ضعيفة
مسترخية ، انتزع نصيبها من فمها ، وطار إلى فم آخر . قلت :
أهذا دأبكن حياتكن كلها ؟ قالت : نعم . إني ما أعرف طعم
النعمة حتى أصفها لك ، وإنما ذقت ألوان الحرمان والشقاء
والفاقة ، وأستطيع أن أحدثك عنها أياماً طويلاً . فقالت إحدى
أترابي : أليس عندكن زوج يعينكن على الرزق ، ويحميكن من
المكروه ؟ فأجابت : عندنا زوج ، ولكنه زير نساء ، نهم أكول ،
زوجاته كثيرات ؟ وعياله عديدون كثيرون ، وليس في وسعه أن يدفع
عنا ضياء أو ييسر لنا رزقاً . وماذا يفعل الذكر في الأسرة الكبيرة
التي تعد عشرين نفساً ؟ وقد عشت على هذا الحال منذ وعيت .
وما أعرف كيف كانت تعيش الأسرة من قبل ، ولكني أرجح
أنها عاشت في الماضي كما تعيش الآن ، ولو كان الفقر طارئاً لوُجد
من يُعالجه أو يدفعه بسبيل من السبل ، ولكن الأسرة ألقت
الضيق ورثمت المذلة ، وتعودت الشقاء . قالت ترب أخرى : ولم
لا تدعين أترابك إلى معالجة تلك الحالة ، وليس يعدم الساعي باباً
من أبواب الفرج ؟ فقالت : إنهن مشغولات بالحسد والنفاق

والكذب والخداع ، وما يسلم يوم من شر يبيّت ، أو مكيدة
تُنصب . فقالت ترب ثانية : أليس بينكن عاقلة رشيدة حازمة ،
تسعى إلى إصلاح الحال ، وقطع دابر الشر ؟ فقالت : لو وجدت
العاقلة لاستضعفت واستذلت واستهدفت لضروب العذاب . قلت :
أيتها الأخت ، صوت واحد يرتفع في سبيل الإصلاح والخير ،
يحدث أثراً عميقاً في النفوس ، وهو وإن لم ينتج تغييراً عاجلاً
فلا شك أنه ينتج تغييراً آجلاً . قالت : أنت يا أختي تطلبين من
يضحّي بنفسه في سبيل غيره ، وقد عز بيننا من يضحّي . قلت :
أولست مؤمنة ؟ قالت : بلى . قلت : كوني أنت المضحية ، قالت :
لو كان لي أقل رجاء في الظفر لكنت من تريدين . ولكن الشرّ
في بيتنا بلغ حدّاً من الطغيان والعنف بحيث لن ينفع معه نصح
ولا إرشاد . قلت : يجب أن يكون مع التضحية أمل وإيمان ،
وإلا فمصيورها الإخفاق . قالت : وما دواء الجائع البائس ؟ إن
فراغ المعدة في نفسه شر لا يقهر ، ولو تيسّر للأسرة ما يسد
الرمق ، لصحّ أن تُنصح فتستنصح ، وأن ترشد فتسترشد . فقالت
إحدى الأتراب : الحق ما تقولين ، فيجب أولاً أن تشفى الأسرة
من تباريح الجوع ، قبل أن تعالج نفوسها ، فقالت : وما السبيل

إلى ذلك ؟ قالت الترب : السبيل إلى ذلك واضح . انطلقن من
 المأوى ، واضربن في الأرض . فقالت : ومن أين الخروج ؟ إن
 حول مأوانا جداراً لا يجتازه إلا المستميت . قلت : أو أنتن
 محجوزات محجوبات عن المخلوقات ؟ قالت : إننا في سجن فيه
 قسوة المادة ، التي لا ترحم ولا تلين . قلت : إذن اجتمع عليكم
 السجن والفقر . قالت : والفساد والبغى . قلت : ولا يعيش هذان
 إلا بوجود ذينك ، وما رأيك فيمن يحمل إليكن الطعام ؟ قالت :
 ومن يبيع نفسه رخيصة . قلت : أو يهلك الحسن عندكن ؟
 قالت : ما عرفنا الحسن حتى نميزه من المسىء . قلت : ولكن
 فيك غير ذلك ، وإن كان أترابك مثلك فلن يستثنى إلى الحسن ،
 ومع ذلك فنحن سنقذف إليهن الطعام من وراء الجدار ، ولنسئ
 نبغى منهن جميلاً . قالت : لك الخيار فيما تفعلين ، على شريطة
 أولاً : أن أعفى من مرافقتك ، وثانياً : أن أجنب اللوم بعد أن
 أُنذرت . فقالت إحدى الأتراب : لنقنع بخلاص نفس بأئسة ،
 ونحن بعد في شغل شاغل . فقلت : أعدكن أن أؤدى واجبي على
 أحسن وجه ، فقالت إحدى الأتراب : وأنا معك وعلى بركة الله .

لم أوفق بعد تخليص ذات الوجه الغريب إلى تنفيذ ما عزمت عليه ، بسبب اشتغالي بتربي ذات الأجنة . فقد عرفت السبيل إلى إرضائها ، وظفرت بثقتها . وقد أظهرت في بدء الأمر ذعراً من ذات الوجه الغريب ما فتئت أعالجه إلى أن رضيت عنها ، واطمأنت إليها . وما أعرف أن عيني أحسنا النوم لفرط تفكيري بتلك الأسرة البائسة . وكيف لعيني مخلوق أن تغمضا ، وفي الوجود أسرة تعاني البؤس والشقاء ، وتبلى الفساد والشر . إن قلبي ليتصدع حين أفكر بأن فريقاً من الخلق يتضور جوعاً ، وفي وسعي أن أساعده . إن سعادتي نقصت بمقدار ما سمعت عن شقاء تلك الأسرة . وكنت أحسبها كملت بعد ما وقع في أسرتنا من الحب والائتلاف ، وبعد ما مَنَّيتُ به نفسي من مستقبل سعيد بخروج الأجنة إلينا . وكم حاولت أن أدفع الأرق عن عيني بانتحال المعاذير ، وضرب الفروض . وكم قلت لنفسي : هبك لم تسمعي ما سمعت ، وهبك لم تصدقي ما قيل لك ، وهبك ما رأيت ذلك الوجه الغريب . ولكنني سرعان ما تظهر لي الحيلة ، وأتبين

أنى أخدعُ نفسى ، فيعود إلى الأرق والحزن . وما وجدت مخرجاً
 سوى أن أحزم أمري ، وأنفذ خطى . فجئت إلى إحدى أترابى
 فى الصباح ، وقلت لها : هيا أيتها العزيرة ، فلنحمل ما تقدر عليه
 من طعام ولنذهب مسرعتين لإسعاف تلك الأسرة . فقالت :
 لميك . واسترشدنا بضيفتنا ، وذهبنا مثقلتين بالطعام ، وسرنا
 مجدات . وكانت هذه أول مرة أخرج فيها من المأوى باختيارى
 لأودى واجباً . سرنا نقطع المسافات البعيدة متجنبات المخاطر
 التى كانت تطل علينا من حين لآخر ، مهددةً بالهلاك . فرأينا فى
 طريقنا عمالقة جبارين ، يسرون متكبرين مختالين ، وكأن الدنيا
 تسير وفق رغبتهم ، وطوع إرادتهم . وما كنا ننال منهم إلا
 الشررات الممزوجة بالكراهة والازدراء ، كأن الذى خلقهم غير الذى
 خلقنا . ولو كان فى وسع أحدهم أن يبطش بنا لما تأخر ، فقد
 كنا أحرص من أن تقترب منهم ، وأحذر من أن نأمن لهم .
 ومن أين لهؤلاء العمالقة أن يشعروا بمهمتنا ، ومن أين لهم أن
 يشعروا معنا ؟ أليس العمالقة قساة طغاة لا يسألون عما يفعلون ؟
 ألسنا نحن المخلوقات ضعيفات لا يؤبه لنا ، ولا يسأل عن حالنا ،
 ولا يُقام لنا وزن فى الوجود ؟ أليس فى العمالق قدرة على البطش

دون شفقة ولا رحمة ؟ أليس فيه جبروت الطاغى المستبد .
ومع ذلك فقد بلغنا مأوى تلك الأسرة آمانات . وكان الله
أعدل من أن يحول بيننا وبين ما نريد . وما إن أشرفنا على
المأوى حتى تخلفت ضيفتنا ، وتسترت وراء شجرة ، وأشارت
بيدها أن هناك ما تريدان . فسرنا حثيثاً ، ونظرنا من وراء
الجدار . فإذا أمة من المخلوقات ، يكسوها البؤس ، ويهزلها
الجوع ، ويُزرى بها الشقاء . دنونا من المأوى وسلمنا ، فما رأينا
إلا عيوناً مفتحة ، تحتها أجسام ضامرة وسيقان نحيلة ، كأغصان
الشجرة اليابسة في فصل الخريف . أعدنا التحية فاستدارت
حدقات في تلك العيون أدخلت الرعب في قلوبنا ، وكادت تربي
أن تبتعد ، فأخذت بيدها ، وقلت لها : لا تحجمي ولا تفرعي .
وبادرت بقذف ما حملت من طعام إلى الأسرة من أعلى الجدار ،
ثم أخذت حِمْل تربي وقذفت به أيضاً . فتزاحمت مخلوقات
كئيبات شرسات تتخاطف الحب في دعر ونفار . فمنهن من
تلتقف الطعام وتقر به إلى آخر الساحة . ومنهن من تلحق بالحاملة
وتعمى عن أن ترى ما أمامها . ومنهن من تأكل بشره . ومنهن
من تنتزع الطعام من غيرها ، ولا تكلف نفسها مؤونة الأخذ

بالفم . ومنهن من تجفل حيناً ثم تهجم بلا إجمال . وقفنا شاهد
 ذلك المنظر ونشوة الإحسان تسرى في أجسامنا وتملؤنا سروراً .
 أما الزوج فكان يظهر مهدود القوى ، زائغ البصر مضطرباً
 ينتقل من مكان إلى آخر ، في غير وعى ؛ تارة يتناول الطعام ،
 وتارة يهرع إلى زوجاته يشار كهن في طعامهن ، وتارة يحذق إلينا
 دهشاً ، وتارة يقفز إلى باب المأوى . وبعد أن فرغنا من قذف
 جميع ما وسعنا حمله ، رفعت صوتي أدعو الزوجات إلى الدنو مني .
 فصاح بزوجاته : الزمن مكانكن ، وإيا كن والتقدم . فقلت له :
 أيها العزيز ، لِمَ الذعر ؟ لسنا أعداء وإنما نحن آيتان لنقدم
 اليكم الطعام . فقال : وَلِمَ وَمَنْ أُرسلكما ؟ فقلت : جئنا من
 أنفسنا . فقال : وكيف ؟ فقلت : كنا نمر بماؤاكم فرأينا ما أنتم
 فيه من فاقة فأردنا أن نساعدكم . فقال : ولم ؟ قلت : أوجب أن
 يُسأل المحسن عن إحسانه ؟ قال : ومتى أحسن المحسن عن غير
 قصد ؟ قلت هالك الدليل . وأشرت بيدي إلى الحب . فضحك
 مقهقهاً وقال : نَعَمْ الدليل . تفضلاً إن كنتما صادقتين ... ولكن
 أَلستما مخلوقتين من طينتنا ؟ قلت : بلى . قال : ما ألقنا من
 المخلوقات إلا الشر والبغى . وأنا أتحدكما أن تثبتا صدق دعواكما

بأن تدخلنا إلينا . فقلت : أيها العزيز ، شططت في طلبك ،
 وأسرفت في سوء ظنك . فنحن نثبت لك حسن نيتنا بالانصراف
 عنك لا بالدخول إليك . فرفع صوته في ضحكة مدوية وقال :
 منطق جميل . ونظرت إلى زوجاته فإذا هن مترصات كالموج ،
 بعضه يقبل وبعضه يدبر . فعلمت أن حديثي طمان بعضهن وأفزع
 البعض الآخر . وأن بينهن من تود لو تستطيع أن تدنوني ،
 وبينهن من تود لو تستطيع أن تبلعها الأرض فزعا . ففقت بأن
 عملي صاد بعض القلوب ، وأدخل فيها الثقة بالإحسان والفضيلة .
 وقلت في نفسي : لا بد من أن تنمو تلك الثقة فتشمل الفريق
 الآخر . ولا بد من أن تنبت الفضيلة في هذه الأسرة فاضلة تدعو
 إلى الإصلاح والمحبة ، وتزيل البؤس والشقاء . ولا بد من أن
 تجد من يؤازرها ويشد عضدها ، لأن الجانب الذي شعرت بأنه
 مال نحوي كان كبيرا .

ولما هممت بالعودة قلت لهن : وداعا أيتها الحبيبات ، وكان
 الله في عونكن . فقال الزوج بصوت أجش : إلى أين يذهب
 هذا الوجه المليح ؟ فنظرت إليه مستحيرة وقلت : إلى حيث يدعو
 الواجب . فقال : لَيْتَ الواجب هنا . فرفعت عيني وإذا ابتسامات

خفيفة تعلو ثغوراً ، ونظرات طائرات تعلو رؤوساً ، فزاد حيائي
وعُدت مسرعة إلى المأوى مع صديقتي ، وأنا موزعة بين العجب
لما رأيت مما لا يُصدّق من بؤس وفاقة وسوء حال ، وبين
الابتهاج بتأدية الواجب الجميل دون مشقة .

١٨

استيقظنا في صباح هذا اليوم مبكرات على أصوات الصغار
تنبعث في رفق وعذوبة من محضن تربنا العزيزة . وما كادت
الشمس تملأ الساحة نوراً ودِفئاً ، حتى خرج معها إلى الوجود
خمسة عشر مولوداً يستقبلون الحياة ، بأصوات مملوءة بالبشر
والابتهاج .

وما كدت أسمع تلك الأصوات حتى غمرني سرور لا حدّ له .
وهل في الحياة أروع من رؤية الأطفال يذبون على الأرض دُباً
رفيقاً ، وكلهم طهر وسذاجة وحنان ؟ إن هذه الكتل اللينة
من الخلوقات تُثير في النفس أعق المسرّات ، وتبعث في الجوانح
ما لا يوصف من مباهج وأفراح . إن الخليقة تتراءى لنا عجوزاً
شمطاء ، قاسية القلب ، كالحة الوجه ، مشؤومة الطلعة . فإذا

ما رأينا فيها هذه الخلوقات الصغيرة ، انقلب وجه العجوز الشمطاء إلى وجه شابة غانية ، مشوقة القوام ، ميمونة الطلعة ، مؤنسة العشرة . ولا غرو في ذلك ، فالخليقة كأما الطبيعة تمرّ في فصول متعاقبة . وكما أن فصل الطبيعة الزاهر هو الربيع النضر الباسم ، ففصل الخليقة اليافع هو هؤلاء الأطفال يظهرون إلى عالم الوجود . وكما أن الطبيعة تجدد نشاطها وتزكي قوتها في فصل الربيع ، فكذلك الخليقة يشتد ساعدها ، ويغزر دمها في أوقات الخصب الإلهي ، الذي يظهر في فصل الولادة . وَمَنْ مِنْ أبناء الطبيعة لا يسأم إن سَحَبَ الصيفُ ذيله على أخيه الخريف ، ولم يودع الحياة في نهاية أجله . فكل فصل له أجل لا يتمنى أحد من الخلوقات أن يراه منسحباً على حساب غيره . ولكن هناك فصلاً واحداً يتمنى الخلوقات جميعاً أن يروه ممدود الأجل ، وهو فصل الربيع . وهذا موقف الخلوقات جميعاً من فصل الولادة ، فإنهم ليسعرون أنه فصل البركة والإنتاج والخير العميم ، ويودون لو أنه يعمّر مدى الحياة . وماذا أقول في تربي العزيزة ، التي منحها الله أعظم البركات . ولئن كنتُ أنا الغريبة عنها شعرت بأن حياتي أخذت تتجدد بروية تلك الخلوقات . فماذا عسى أن يكون شعور الأم ؟ .

كنت أول من هناها وباركها . فرأيت في عينيها نوراً إلهياً
 لا يعرفه إلا العابد المتبتل الذي يهب حياته إلى الله ويصونها
 من الخبائث والآثام . قلت لها : أيتها الحبيبة ها قد عوّضك الله
 عن تضحياتك أعظم العوض ، وها أنا أرى بعيني مغزى ما كنت
 تشيرين إليه حينما كنت ألومك على إمساكك عن الطعام والشراب
 فقالت لي : يا أختي العزيزة ، إني أحسُّ أني خلقت من جديد ،
 ولو كنت أستطيع أن أدخلك في قلبي لرأيت مالا تصدقه عيناك .
 إن روحي تضاعفت بقدر ما ترين من أولادي ، فأنا الآن نفسٌ
 بخمس عشرة نفساً ، وروح بخمس عشرة روحاً ، فتصوري مخلوقاً
 له جسم واحد وخمس عشرة نفساً . قلت : ياله من شعور جليل
 مبارك . أو ما تشعرين يا أختي بتضخم جسمك أيضاً ؟ فقالت
 وهي تبتسم : إنك تريدني على أن أعوض ما فاتني من الغذاء .
 فقلت : ليتني أستطيع أن أحملك على تعذية جسمك هذا ليقوى
 على حمل تلك الأرواح الخمس عشرة التي خلقت فيه . فقالت :
 أيتها الأخت لا تعجلي ، وأرجو أن يأتي اليوم الذي تختبرين
 فيه ما اختبر . فسترين حينئذ أن الجسم لا يتغذى بالمادة وحدها
 وإنما تغذيه عناصر أبعد ما تكون عن المادة . قلت : ولكنني

أعجب كيف تقوين على حمل نفسك ، ولم يدخل جوفك طعام منذ مدة طويلة . ولو أمسك أحدنا عن الطعام بضعة أيام لهلك لا محالة فقالت : هو ما تقولين وسرّه أن الذي يتفرغ للحياة المادية يحسب أن المادة قوام حياته ، فلا يستطيع أن يصبر دونها زمناً طويلاً . وأما من انصرف عن المادة وتفرغ إلى ما هو أسمى وأعز ، فإنه يستطيع أن يمسك عنها مدة طويلة جداً . وهذا أمر مرده التجربة لا العقل . قلت : أختي ، لله ما أجمل بيانك ! والرياضة ؟ قالت : أخرج لأجل الأعزاء . فأعنتها على الانتقال من المأوى ، والأولاد يتدافعون من حولها ، وهم على أشد ما يكون من المرح والنشاط . وقد كنت معهم كأحدهم ، وإن كنت أكبر منهم سنّاً . الحق أن روحى كانت من سن أرواحهم ، وأن قلبى كان من سن قلوبهم . لعل هذا يعلل سرّ شعورى باندماج روحى بأرواحهم اندماجاً تاماً . نعم إنى لست لهم أماً حتى أستأثر بشعور الأم الذى تنفرد به دون سائر الخلق . ولكن الله يعلم أنى أتحد معهم فى الروح اتحاداً ما شعرت به فى حياتى مع أرواح أخرى . وما أن خرجنا من المأوى حتى هرعت الأتراب مهنئات ، فتقبلت الترب العزيزة تهانين بالشكر . ولكن الصغار ما ألفوا

الأتراب . وما برحوا يخرجون من تحت كنفى أمهم ويعودون إليهم من حين لآخر ، متدافعين كأن في الجو ما يذعرهم . ولكن فرح الأتراب كان عظيماً بهم ، وكانت تهانينهم معبرة عن فرحهن أوضح تعبير .

ما أظن أن تر بنا العزيرة تناولت حبة واحدة طول النهار على كثرة ما ضربت في الأرض وتناولت بقمها الحب . فقد كانت مشغولة في البحث عن أطيب الغذاء وأرطب الهنات كي يستسيغ أولادها ما ياكلون هنيئاً مريئاً . ما كانت الحبة تصل إلى فم الأم حتى يهرع الصغار يطلبونها مدلين بأنفسهم ، وكانت الحبة تسقط في فم أحدهم بعد كثير من الرياضة واللعب .

أظن أنني كدرت تربي العزيرة بإلحاحي عليها بأن أعينها على إطعام أولادها . فقد رفضت معونتي محتجة بأن الصغار في أشد الحاجة إلى الرياضة التي تثيرها الحبة الرقيقة أو الهنة الرطبة . ولا بدّ لهم من حركة ولعب لتقوى أجسامهم ، وتشهد سواعدهم . وقد أظهر سائر الأتراب ما أظهرت من استعداد للمساعدة ، ولكنها امتنعت شاكرة في أول الأمر متضجرة في آخره . وما أدري لعل لها عذراً في ما تفعل ، وقد تعجلت لومها يوم كانت تحتضن

الأجنة فأخطأت ولا أريد أن أخطيء الآن مرة أخرى
الحق أنى لا أستطيع أن أكتفم شعوراً ملاً جوانحي اليوم، فقد
تمنيت لأول مرة فى حياتى أن أكون كمخلوق غيرى . إنى
ما حسدت مخلوقاً على نعمة ، وما نافست أحداً فى خيراته ،
ولكننى أعترف اليوم أنى تمنيت أن أكون أمّاً ، فياله من شعور
ويا لها من نعمة !

١٩ .

كانت الأجنة — فى أول خروجها — متشابهة تشابه أغلفتها ،
بل لكأنها الأغلفة بعينها ضمت إليها رؤوس وسيقان ، ونفخت فيها
أرواح فراح تدب على الأرض . ويا ليتها ظلت على حالها ذاك ،
فالتشابه بين المخلوقات ينبىء عن الوحدة والمساواة ، ومتى اتحدت
المخلوقات وتساوت ولو فى ظاهرها زال سبب من أسباب التنافر .
ومن يدري فعمل التفريق بين المخلوقات لم يوح به إلا التنافر فى أشكالها
والوانها . فحسب ذو اللون الأبيض أن لون الفضة استعير من لونه ،
وحسب ذو اللون الأسود أن لون الإثمد سرق من لونه ، وحسب
ذو اللون الأزرق أن لون السماء انشق من لونه ، وحسب ذو اللون

هو الأنثيمون

الأخضر أن لون المروج تقليد لونه ، ففرح كل بما لديه . ومن
يدري أيضاً فاعل كل ذى لون حسب أنه مميز في باطنه كما هو مميز
في ظاهره ، فطغى واستكبر ، وقام الخلاف بين المخلوقات على
أوهى قاعدة ، وأسخف دعوى .

إني ما تمنيت أن يثبت لهؤلاء الأعداء شكهم ولونهم الأولان
إلا إشفاقاً عليهم من مثل هذه الأوهام والأباطيل .

ولكن ما فائدة التمنى أمام الأمر الواقع . فالاختلاف في
الألوان أخذ يتضح ويستبين يوماً بعد يوم . على أنى لن ألقى
السلاح ، وسأعرف كيف أعالج هذه الفروق الزائفة ، وكيف أطبع
هؤلاء الأعداء بطابع ينسبهم ألوانهم مدى الحياة .

لازمت الأعداء من أول نشأتهم ، وشعرت أنى لا أطيق
مفارقتهم . وما أدري ماذا شعرت تربي العزيرة نحوى وماذا
فكرت بى . أتراها توهمت أنى مفطورة على التطفل والأثرة ؟
أم تراها أدركت حقيقة حبي لأولادها ، وأنى مدفوعة بعاطفة
جارفة لا قدرة لى على كبحها . يحملنى على هذا التفكير ما كنت
أحظه فى عينيها من تذمر أو عدم رضى حينما ترانى أبالغ فى
مداعبة أولادها دون سائر الأتراب . على أن ذلك لم يحملنى على

تغيير موقفى قط اعتماداً على ما بينى وبينها من تفاهم وتحاب سابقين
 فهى تعلم مبلغ ثقتى بفهمها ورجاحة عقلها . وما أنسى مواقفها
 السابقة عند عقد الحلف المعهود وبعد وفاة زوجنا الصالح . ومن
 جهة أخرى كان شعور الأولاد نحوى مشجعاً على القصد
 والاحتياط . ولا أبالغ إن قلت إنى كنت موضع سرهم وثقتهم ،
 وأكاد أقول بكل اطمئنان موضع حبهم الصادق . ترى أأجرح
 كرامة الأمومة إن قررت انهم كانوا يلوذون بى فى وقت الشدة ،
 ويسرّون إلى آلامهم ، ويلتمسون رأى فيما يشجر بينهم من
 خلاف . لعلمهم كانوا يخشون إغضاب أمهم ، أو أنهم كانوا يجدون
 عاطفة الأمومة أرق من أن تقوى على تسوية الخلاف بين أبنائها .
 أو لعلمهم وجدوا فى أمهم قسوة الأم المتشددة فى تربية أولادها ،
 المبالغة فى تقدير المستقبل ، وما يستلزم من اعتماد على النفس وجد
 وكد . . وأيا كان الأمر ، فقد عكّدت قلوبنا على المحبة والتفاهم
 الصادقين الخالصين .

ومضى واحد وعشرون يوماً وتربى العزيرة تحيط أولادها
 بسياج من العطف والحنو والإرشاد مارأيت له نظيراً فى حياتى .
 نعم إنى بلوت عطف زوجنا الصالح علينا ، وما كان يحبونا به

من حنو ونصح . ولكن حب تربي لأولادها لا يُدانيه حب في
الوجود . لقد كانت تؤثر أولادها على نفسها ، وما أنسى يوماً ألم
بها فيه انحراف في صحتها ، فتجلدت وخرجت مع أولادها
كعادتها . ولكن آثار المرض والإعياء كانت بادية في مشيتها
وعينيها . ولم حاولت أن أحملها على التزام المأوى ريثما تستعيد صحتها
فلم أفلح . وكان جوابها لي بعد توسلاتي : يا أختي إن صحتي في
صحة أولادي ، وسلامتي في سلامتهم . ومع أني أثق بحبك إياهم
فإني لا أقوى على تركهم . وكل ما استطعت أن أفعله في ذلك
اليوم أن أضرب في الأرض مرشدة إلى مواطن الغذاء الرطب اللين .
والواقع أني كنت أعجب كيف تعيش تربي العزيزة ، وكيف
تقوى على التماسك بعد مرحلتى الولادة والحضانة . ويزداد
عجبي حين أراها نشيطة قوية ، بل في أشد ما يكون من القوة
والنشاط . لقد كانت تلمح ظل الكلب من مسافة تدق عن نظر
ذى البصر الحديد ، وكان دنو الظل من المأوى ينفخ فيها قوة
النمر . ومن كان يستطيع أن يهزمها أو يدخل الرعب في قلبها .
أشهد لو أنها رأت جملاً مقبلاً صوب أولادها لوقفت في وجهه .
قلت لها يوماً — وقد تملكني العجب من اعتدادها بقوتها —

علامَ تُظهرين هذا الحول ، وأنت أنثى ضعيفة لا سند لها ؟
فبرقت عينها وقالت : أنثى ضعيفة ! ومن يقول ذلك ؟ خذى .
وضربت بمنقرها رجلى وكأنه والله سهم مسموم ! ثم أقبلت على
معتذرة ووضعت ريقها على موضع النقر ، فكأنها والله ما ضربت !
سبحانك اللهم لقد جمعت السمَّ والترياق في موضع واحد !

لقد كان في عينها بريق نافذ يخترق الحجب . وكان في
جسمها انفعال سريع في قوة وحدة . فإذا بُعد واحد من أولادها
وتجمع الباقون من حولها ، شعرت كأن خلية من خلايا قلبها
فارغة ، وانتفضت مذعورة تبحث عن مكانه . فإذا ما عاد إليها
غاض الاضطراب وتملكها شعور الطمأنينة .

وفي صباح اليوم الثانى والعشرين خرجت التربُّ من المأوى
مبكرةً كعادتها ، وخرجت مع سائر الزميلات ، وخرج الأولاد
معاً وهم يقفزون في نشاط ومرح دأبهم كل صباح . وأراد أحدهم
أن يُداعبني فقفز على ظهري ، فهمت أن أطرحه خشية أن
تتكدر تربى . ونظرت أمامى لأتبين شعورها فإذا هى قد بلغت
آخر الساحة . فعجبت كيف تعجَّلت سيرها اليومَ خلاف
عادتها . وما كدت أسير قليلاً حتى رأيت الأولاد يتراكضون

في أطراف الساحة ، وتربى العزيرة تنقر الحب في نهم عجيب . فنظرت وأطلت النظر ولكني ما صدقت عيني فهذا أحد أولادها يدنو ليتناول حبة من أمها فتسرع وتتناولها قبله . وهذا يُشَرِّق وذاك يغرب وهي لاهية كأنها ما تعرفهم . فوقفت مذهولة . ترى ماذا جرى لها ؟ لقد كانت بالأمس أمًا بارةً عصبية المزاج لفرط حنوِّها . واليوم كأنها ما عرفت الأمومة ولا أحست بها . ترى هل اوقع بينها وبين أولادها ما يحملها على هذا التطور العجيب ؟ ومتى كانت الأمومة ثوبًا يلبس في يوم وينزع في يوم آخر ؟ وكيف يصح أن ينتقل قلب من حال الحب المبرح إلى حال الكره الذميم ؟ لم أتمالك أن أسرعت نحو الأولاد فرأيتهم على غير ما توقعت . رأيتهم يأكلون ويلعبون ويضحكون ، كأنهم ما فقدوا أمًا . أفقدوا هم أيضًا عاطفة البنوة ؟ وهل البنوة ثوب يخلع أيضًا !

وفي لحظة مر بخاطري رأى . هذه فرصة سانحة لأقتنصها . لن فقدت الأم عاطفتها وفقد الأبناء عاطفتهم لتزدادن عاطفتي قوة وثباتًا . لقد وقع بيدي الآن السلاح الذي طالما تمنيت . لأحتضن الأولاد ولأكن لهم أمًا ثابتة العاطفة ، وصديقة مخلصه المحبة .

فدنوت منهم وصحت فيهم : أيها الأعزاء ، يا فلذات الكبد ،
ويا حبات القلب . تعالوا إلى . أدنوا مني . إني سأعيش لكم
طوال العمر . لقد انعقدت بيني وبينكم المودة منذ خرجتم إلى
هذه الحياة . ولن أتخلف عنكم لحظة . . . اتخذوني لكم أمًّا
وأبًّا وصديقة . وخنقتني العبرات . . . وما استطعت أن أتم
حديثي . فقد كنت أريد أن أقول كثيراً . ولكنهم فهموا كل
هذا الكثير . فالتفوا حولي ، ورأيت في عيونهم مثل الذي رأوا
في عيني . ومنذ تلك اللحظة شعرت أننا روح واحدة حلت في
في أجسام متفرقة . ورأيت فيهم ما أنشد من ثقة وطاعة .

٢٠

٤

مضت أيام وتربى العزيرة ممعنة في الانصراف عن أولادها .
وقد رأيت في تربى ذات الوجه الغريب عوناً على أداء واجبي
نحو الأولاد . فقد دهشت هي كما دهشت . وقالت لي : ليتني
أستطيع أن أصف لك وجهها وعينيها يوم رأيتني وراء الجدار .
إنها كانت تحمل جمرتين لا عينين . لقد كان بريق عينيها أشدَّ
من اللهب . ولو طالتني يدها لصرعتني . ووالله ما كنت أقدر

على النظر في عينيها ، فكيف على مقاومتها ... وهى اليوم هادئة ساكنة . فقلت لها : يا أختى لندع اللوم ، فاعل هناك سرّاً غاب عنا . وكل سر لا بد من أن يفتضح . ولننصرف نحن إلى شأننا . ولقد كنت خير عون لى فى هذه الأيام العصيبة ، فاستمرى فى مؤازرتى . فنحن الآن فى أشد الحاجة إلى رعاية هؤلاء الأولاد ، والتعويض لهم عما فقدوا ، إن صحّ للأمومة أن تعوض . ونحن ثانياً مسؤولات عن تربيتهن وثقافتهن . وقد بلوت أنت كما بلوت أنا سرّ الأسرة الفاقدة التريبة والثقافة ، بل لعل بلاءك أبلغ وأعظم من بلائى . فقلت : يا أختى ، لقد خلقك الله طيباً للبؤساء ، ورزقك الجلد والصبر والثقة ومضاء العزيمة . وأنا بعد صنع يديك فمرى وأنا أطوع لك من بنائك . فقلت : يا أختى إن كنت تطلبين رضاى فجنّبيني أولاً سماع الثناء علىّ . فإنى أكره أن يدخل فى وهى أنى مخلوقة فوق المخلوقات . وأعينى ثانياً على بث المثل العليا فى هؤلاء الأولاد فى رفق وتؤدة . فليس شىء أحب إلى قلبى من رؤية الفضائل تنمو والمثل العليا تزدهر ، والحجة تشيع بين المخلوقات جميعاً .

وما كدت أتم كلامى حتى صاحبت بى : أختى ، أنظرى هناك .

وأشارت بيدها إلى أحد جوانب الساحة . فنظرت فإذا اثنان من الصغار يتصارعان بعنف وقوة كأنهما عدوان لدودان ، أو ضرتان ضاريتان . يبعد الواحد منهما مسافة قدمين ثم يملأ صدره هواء وينفخ جلده ، ويوتر أعصابه ويهجم على أخيه يضربه على أم رأسه أو فوق أنفه . فيتلقى ذلك الضربة في جلد ويسرع إلى الوراء ويتمياً للضربة ثم ينتفض على ضاربه قبل أن يستعد لتوجيه ضربه الثانية . ثم يفعل الأول ما يفعله الثاني ، ويستمران في كر وفر ، وجول وصول إلى أن تنتهك قواهما وتتفجر جراحهما دمًا ، فيمسكا إلى رجعة .

نظرنا إليهما دهشتين . ثم أخذنا تتبادل النظرات في صمت وفزع كأنما تستشيرني وأستشيرها فيما يجب أن نفعل . وقطع صمتنا صوت يُرسل متقطعاً كأنه صوت ضربات متتابعة على طبل ضخيم . فنظرنا صوبه ، وإذا تربنا العريزة تنظر إلى وليها وتقهقه من فرط الضحك . وكلما اشتد الصراع ، وسدّت الضربات وغرز الدم اشتد ضحكها وارتفع صوتها . فأخذنا ندير أعناقنا مرة صوب الصغيرين ومرة صوب الأم . . والمصالاة تحتدم والصوت يرتفع . . حتى خشينا أن يهلك الطفلان وأمهما في وقت

واحد . صحت في تربي ذات الوجه الغريب : أسرعى وحولى
 بين الصغيرين . فنفذت نحوهما كالسهم ، وكأنما كانت تنتظر مثل
 هذا الطلب وأمسكت أحد الصغيرين بيديها وأخذته إلى المأوى ،
 وأدخلته فيه ، وهو يُقاوم في عنف ، والدم يتفجر من الثغرات
 العديدة فوق أنفه وأعلى رأسه . ثم أسرعت نحو الثاني وقبضتُ
 على يده وساقته إلى . ونظرتُ إلى الأم فاذا وجهها مكفهف ،
 وإذا هي تُسرع الخطى ، وتضرب في الأرض باحثة عن الحبِّ
 السمين ، كأن لم تر شيئاً . وددت لو أدخل في أعماق هذه الترب
 في تلك اللحظة لأرى حقيقة شعورها . إنها بلبلت أفكارى
 وحيرت عقلى . لقد كانت قبل أن تلد مثال الكمال والاتزان .
 وكانت في أثناء الولادة والحضانة مثال التضحية والإخلاص ،
 والآن ماذا جرى ؟ أأنهكتها أيام الولادة والحضانة واستنفدت
 قواها فمُست ؟ أأوحى إليها أن قد تمَّ واجبها وانتهى دورها ،
 فمسحت يدها من أولادها ؟ أرأت بعين الفطرة أن خير
 ما تصنع أن ينشأ أولادها معتمدين على أنفسهم اعتماداً تاماً كي
 تتكون فيهم الخشونة والصلابة اللازمتان لمقارعة الخطوب
 والأحداث ؟ أنشأ بين عقلها وقلبها صراع فانتصر الأول وأضحت

تسير بعقلها دون قلبها ؟ وإني أعلم ما يكون جوابها لو تطلعتُ
بالسؤال ، ستقول لي بابتسامة ماكرة : انتظري حتى تُصبحي أما ...
وهذا جواب سؤمته لكثرة ما سمعته .

جاءت تربي بالطفل وقالت : أنظري كيف يتفجر الدم من
وجهه . . فوضعت يدي على وجهه ومسحت دمه وقلت له : لم
هذا الصراع ؟ قال : دأب يأخذ الحب من أمامي فنصحته أن
يكف فما كف . واليوم فاردمي ولم أتمالك أن لطمته فلطمني
وشجر الصراع . قلت له : أتقتلان من أجل الحب ؟ قال : هو
الذي بدأ العدوان ، قلت : أي عدوان هذا الذي تبيحان في
سبيله إراقة الدماء وإزهاق الأرواح ؟ قال : تعدّي علىّ ونقر
حبي ؟ قلت : حبيك ؟ الحب ملء الأرض وهو مشاع للجميع
الخلوقات ، ولو تركته يأخذ الحب من أمامك لتركت تأخذه من
أمامه ، ولو فعلتما ذلك لوجد كل واحد منكما كفايته وما فوق
الكفاية . . يا عجبا لكما ! أتجدان الحياة أثنى من الحب ؟ فرفع
بصره إليّ ثم ردّه وقال : أيستطيع مخلوق أن يستغنى عن الحب ؟
قلت : لا . قال : إذن الحب والحياة شيء واحد ، ومن أخذ
حبي كأنما أخذ حياتي فخرّ في قلبي قوله ، وقلت له : ومن

علمك هذه السفسطة التي كانت أعظم بلاء على الخلق منذ ظهوروا على وجه الأرض ؟ إن الحب في نفسه لم يكن في يوم من الأيام سبباً للنزاع بين الخلق ، إن النزاع — إن جاز أن يقع — يقع حول ما هو نادر وثمين . والحب ملء الأرض ، ولو كوّمته لبلغ عنان السماء إن النزاع ، يا بني ، وليد الشهوات الجامحة ، ومن ألبم شهوته بلجام القناعة ، بنت الفطرة البكر ، ما عرف النزاع في حياته قط . إن الحبة أو الحبات التي نقرها أخوك من أمامك ما كانت لترد عليك حياتك لو سُلبت . ولو لم تمنعه أول مرة من أخذ الحب من أمامك لما تولدت في نفسه رغبة فيه ، ولما تعدى على ما تزعمه حق لك . فأنت إذن الملولم . فاذهب إلى أخيك واعتذر إليه ، ولا تعد إلى مثل تلك السفسطة التي تُرديك وترديه معاً . . . فطأ رأسه مستحيماً وسار نحو المأوى .

٢١

قلّ الحب في الساحة لأول مرة ، ومسنا الجوع مساً رفيقاً في بدء الأمر ، ثم مساً قاسياً لاذعاً في نهاية الأمر . فأخذنا نبحث عن الطعام في أطراف الساحة ، ونضرب في الأرض حفراً ونقرأ ،

وما نسقط إلا على ما يسد الرمح ويمسك النفس من التلف .
وقد عجبت لتربي ذات الأجنة في أثناء هذه الحطمة . فقد
كانت أقلنا تحملا لتباريح الجوع ، وأشدنا فزعا من قلة الطعام ،
وأكثرنا نهما وأكلا . كانت تأكل وتأكل وتأكل كأنها لا تعرف
الشبع ، وكأنها كلما أكلت زادت جوعا . ترى أفتتح أتون في
جوفها يلبتهم الأخضر واليابس ؟ إن مثلها من ذاق الجوع فيما مضى
من حياته وصبر له ، كان ينبغي أن لا يجزع ولا يشره إلى
الطعام ... ولكن يظهر أن من ابتلى بالحرمان ابتلى بالجشع . ولا
أنكر أنى وسائر العشرة شعرنا برغبة ملحة في الطعام ما ألفناها
في الأيام السابقة . وكأن غريزة المحافظة على الحياة كانت نائمة
فاستيقظت . أنامها الأمان وأيقظها الخوف . فعلمت بذلك علم
اليقين أن حياة المخلوق معرضة للوساوس والأوهام . يشبعه الوهم
حينما ويجيعه حيناً آخر ، ومعدته ثابتة لا تتغير . إن استطاع
المخلوق أن يتسلط على شهواته وغرائزه ، كان مزاجه أقرب إلى
الثبات والاعتدال ، وأبعد عن التأثير بطوارئ الأوهام .
لقد خشيت على الأولاد أن يفسد الجوع أخلاقهم . فهم
أضعف منا أجساما ، وأرطب عودا ، وأرق إحساسا . وهم لذلك

أقل منا تحملاً للجوع . ولكنهم ما استخذوا وما وهنوا . وراحوا
يضرّبون في الأرض بجذ ونشاط . ولما عزّ الحبُّ جاءوا يشكون
إلى ما يعانون . قلت : أيها الأعداء ! كيف يمسكم الجوع وأنتم
في منبسط من الأرض لا يحده البصر ؟ فقالوا بصوت واحد :
وهذه الجدران المرتفعة من يُزيلها ؟ قلت : إن عزيمة الشباب
تعلو كل مرتفع ، وتقحم كل عقبة . ابحثوا عن ثغرة في الجدار
وانفذوا منها إلى أرض الله الواسعة . فقالوا : لقد عودتنا حُبَّ
النظام وأوصيتنا أن لا نتعدى الجدار . وكنا في هذه الأزمة نشعر
بقوة تدكّ الجدار ، ولكننا أمسكنا خشية إغضابك . فقلت لهم
بصوت فيه نشوة الظفر : لقد علمتكم في أيام الرخاء القناعة
والنظام ، وأريد أن أعلمكم في هذه الأيام السود التذرع بالقوة ،
والسعى في طلب الرزق . إن ما مرّ ببال بعض الخلق ، في يوم
من الأيام ، من أن العمل مراتب ، منه الشريف ومنه الوضيع ،
ينبغي أن تنسوه أنتم حتى يصبح كأن لم يكن . إن اليد الخشنة
المقرّحة بالعمل هي العليا ، واليد الناعمة المطراة بالترف هي
السفلى . . . فما كدت أنتم حتى تعالت الأصوات بقوة تحرق
السمع : هيّا . . . فنظرت إليهم وعجبت لحناجرهم الرخوة كيف

استطاعت أن تُحدث ذلك الصوت المروّع . . ودبت في حماسة^١
 لم أعهد مثلهما من قبل ، فقلت : قفوا . . ودعوني أتقدمكم في
 فتح الثغرة . . . وأقبلنا جميعا نجوس خلال الجدران المتماسكة
 البنيان ، باحثين عن نقطة نقنقحها . وفي لحظات فتحنا ثغرة
 خرج منها الأولاد كالسهام المنطلقة ، وكان ذلك أول خروجهم
 لأكل الحب بعرق الجبين .

تركت الأولاد وحدهم يستمتعون بنعيم الحرية ، وفضيلة
 الاعتماد على النفس ، ولذة البحث عن الطعام في أرض واسعة
 لا يفوز بخيراتها إلا العامل الجَدّ ، وعُدت إلى الساحة ، فإذا
 بالأتراب يجلسن مكثبات ، وما كدت أصل إلى مقامهن حتى
 بادرتني إحداهن بقولها : أيتها الأخت كيف أبحت لهؤلاء الصغار
 الخروج من المأوى ؟ قلت : إنهم ما عادوا صغارا . وهذا أوان
 خروجهم للسعى في طلب الرزق . فقالت ثانية : لقد عشنا في
 هذه الديار طويلا دون أن نتعدى الجدار ، فماذا جدّ اليوم حتى
 يُخالف العُرف ، ويُثار على النظام ؟ وهممت أن أجيب ، وإذا
 بتربى ذات الأجنة تفتح فمها فأمسكت حتى أعرف رأيها ،
 ولكنها بدلا من أن تتكلم أخذت تضحك ضحكا عاليا ، يشبه

ضحكها يوم تصارع ولداها . فغاضني عملها ، ولم أخش قطع ضحكها ،
فقلت للترين وعيناي مسطمتان على تربي الضاحكة : إنكما
تسألان عما جدَّ حتى يُخالف العُرف . لقد جدَّ الشبابُ وجد
الجوع . وواحد منهما خليق أن يدفع بالخلق إلى العمل ، فكيف
وقد اجتمعا ؟ فقلت إحداهن : مثلك أيتها الأخت من يتذرّع
بالصبر في أيام الشدة ، فكيف فقدت الآن صبرك ؟ قلت : إن
أولادنا يعيشون لزمن غير زماننا هذا . وقد جدَّ الآن ، وسيجد
غداً ، من الظروف والأحوال ما يدعو أن يكونوا على أتم استعداد
لمواجهتها بعزائم قوية وقلوب لا تعرف الخور والاستسلام . فقلت
تربي ذات الوجه الغريب : صدقت والله أيتها الأخت العزيزة .
إن من ينشأ على الاستسلام والاستخذاء يشبَّ عليهما . وقد
بلوت شرَّ ذلك في أُسرتي . فقد رأيت الجيل الجديد يقفوا أثر
الجيل القديم ، ويفوقه في التزيد من سيئاته . وما رأيت من
يفكر في الخروج على المألوف ، فساء حالنا حتى وصل إلى ما نحن
عليه من التخاذل والفقر والضعفة والفساد . فقلت ترب : ولم لم
تثوري على العُرف ؟ فقلت : لأنني كنت أعتقد أن الفردَ أضعفُ
من أن يقوى على إصلاح غيره . بل إنه يعجز أحياناً عن إصلاح

نفسه . ولما قُدِّر لي أن ألتجئ إلى ما وَاكُن وأكتشف أسرار كُن
وأَتَّبِع ما يجرى كل يوم صرت أعتقد أن كلمة الخير شجرة مباركة
لا بُدَّ من أن تُنتج عاجلاً أو آجلاً ، وأن حياة الركود والاستسلام
جبن لا يقيم عليه إلاَّ الأرذلون من المخلوقات ...

كانت صديقتي تتكلم وأنا في حالة من النشوة عجيبة . ولكني
لم أعقب على قولها بكلمة .. كان يسكتني الفرح بالنصر ... وما
أدري ما كنت أستطيع أن أقول لو دُعيت إلى القول .. وقد رحمني
محيي الأولاد يحملون بأفواههم الحَبَّ السمين والهبات الطيبات .
كنت أحسب تربي ذات الأجنة تأبى مشاركتنا ، فإذا هي
تأكل بشره . لقد أوحى إليها أنها تأكل ممن أطعمت ، وتتغذى
ممن غدت ، ففتحت شهوتها واندلع منها لسان حاد كلهب التنور
لا يُبقي ولا يذر . وما أعرف أنا أكلنا بمثل هذه الشهوة من قبل .
كانت الثغرة التي فتحت بويماً للفرج ، فأضحت الآن باباً
من أبواب الرحمة للأسرة جميعها ... وما لبث الحَبُّ أن عاد
كما كان في سابق عهدنا . ولكن الأولاد ما برحوا ينفذون منها
إلى أرض الله الواسعة يلتمسون أشياء أجلَّ من الطعام ...
يلتمسون الحرية ، حرية الحركة والسير ، ويلتمسون الاعتماد

على النفس ، وفضيلة التعاون في بناء بيتهم الجديد ، وأخيراً
يلتمسون الرزق بعرق الجبين . . . وما شجر بينهم خلاف ، ولا
استطار شرٌّ . ولقد أصبحوا الآن نواة صالحة لمجتمع جديد . .

٢٢

وفيا أفكر في المستقبل الزاهر السعيد ، وأصبح في عالم الآمال
والأحلام ، إذ تفاجئني تربي ذات الوجه الغريب بقولها : أيتها
الأخت الحبيبة ! عزمت على مغادرة مأوانا الطيب قلت : إلى
أين ؟ قالت : إلى بيتي القديم وعشيرتي القديمة . قلت : وكيف
تعودين بعد الفراق الطويل ؟ إني أخشى أن يصيبك ضم .
قالت : إني لا أبالي بما يلحقني . قلت : ولكن أنا أبالي ...
قالت : يا أختي ، أتبالين بالضم يلحقك في سبيل المثل العليا ؟
قلت : كلا والله ! قالت : فكيف أبالي أنا إذن ؟ ففهمت مقصدها
وأنها عزمت على القيام بعمل عظيم . . وما كان لي أن أصدها
عن عزمها . ولكن عز عليّ فراقها . لقد كانت أسرع الأتراب
فهما لآرائى ، وأشدهن مؤازرة لي ، وأحرصهن على التوضيح
في سبيل الخير العام . وقد كنت أعول عليها كثيراً في تهذيب

الأولاد . وقد أحبوها بقدر ما أحبتهن . والحُبُّ خير وسيلة لنقل الأفكار وبث المذاهب .

تملكنى عاملان لفراقها . عامل الفرح لأنها ستحمل رسالة الخير والصلاح لعشيرتها . ومثلها خليق بالنجاح . فقد عرفت فيها مضاء العزيمة والبذل الغالى فى سبيل المبدأ . ومتى اجتمعت العزيمة والمبدأ فلا مفر من النجاح . والعامل الثانى عامل الحزن ، لأننى أفقد صديقة مخلصه وعضواً كريماً فى أسرتنا / قلت : — والدمع ينحدر من عيني — ومتى تغادرين أيتها الحبيبة ؟ قالت : بعد قليل . فإني ماودعت الأتراب والأعزاء . وقد كتبت عنهم أمر مغادرتي . قلت : ليرافقك التوفيق ، وليُسعدك النجاح . فهل لى أن أكلفك زيارتنا لنطلع على أخبارك ؟ قالت : لن أتأخر عن الزيارة . ولكنى عازمة على تنفيذ مبادئنا مهما كلفنى الأمر . ولن أغادر العشيرة مهما بلغت الصعوبات من القوة والصلابة . وربما حجبني ذلك مدة . فإن تأخرت فاعلمى عذرى . فهجمت عليها أقبلها وأدعو لها . وتعانقنا لحظات غبنا فيها عن الدنيا . وكأن روحينا انقلبتا إلى سائلين متمازجين . . .

ورأنا الأولاد على هذا الحال فهرعوا إلينا ، وأقبل الأتراب

فاجتمعت الأسرة كلها، فقالت تربي العاقلة - وهذه من الفرص
النوادر التي تكلمت فيها بعد الولادة: ما الخطب؟ قلت: جاءت
تودعنا! قالت: وكيف؟ ألم تخبرينا أنها التجأت إلينا؟ قلت:
نعم، والآن حنّت إلى عشيرتها. قالت: ألم تقل إن حال العشيرة
أسوأ من أن يُحتمل؟ قلت نعم.. فقاطعتني ذاتُ الوجه الغريب
قائلة: كنت أعتقد ذلك يوم جئتُ، ولكنني غيّرت اعتقادي.
قالت تربي العاقلة: وكيف؟ أجاك نبأ أن العشيرة صلح حالها؟
فأجابتها: لا.. ولكن صلح حالي أنا. فقالت: عهدناك صالحة
الحال منذ وفدت علينا، ولا بد أن يكون ثمة جديد. فقلت:
أيتها الأخت. نعم، ثمة جديد. لقد رأيتُ أختنا بعين البصيرة
أن شقاء أسرتها يُمكن أن يحسم. قالت: وما سبيل ذلك؟
قلت: أن تعود إليها وتشر فيها المبادئ السامية، فلا ينبغي أن
توجد بقعة في هذه الدنيا محرومة من العدل والمساواة والمحبة
والتعاون. ومن أولى بإصلاح تلك البقعة من أختنا؟ فقالت:
وهل اتخذت ما ينبغي من عدة لمقاومة الأهوال ومصاولة الأحداث؟
فقالت ذاتُ الوجه الغريب: نعم إن عدتي إيماني بصحة مبادئ
واستعدادي للتضحية في سبيل تلك المبادئ.. فقالت: أيتها

الأخت ، إن جمعت بين الإيمان والتضحية فقد وفرت جميع أسباب النجاح . فأجابت : أيتها الأخت الرشيدة ، لقد شقيت بشقاء عشرينى مدةً من العمر ، وأنا لا أدري أين المصير ، أفلا أشقى الآن مدةً أخرى فى سبيل تحقيق سعادةٍ متشمل عشرينى وتشملى طوال العمر ؟ لو كان المخلوق مفطوراً على الوحدة والاستقلال الكلى عن المجموع لصحَّ له أن يشقى وينعم منفرداً عن عشرينه ، ولكن كيف يستطيع مخلوق أن يُنشئ قصرًا جميلًا منجدًا وسط مقبرة غاصَّة بالأشلاء والمجاصم ؟ إنَّ من يزعم أنه يستطيع أن يفعل ذلك لأضلَّ مخلوق على وجه الأرض . إنه قد يُلهى بزخرف قصره مدةً من الزمن ، ولكن فى اللحظة التى يخرج فيها رأسه من القصر ، بل فى اللحظة التى يفتح فيها نافذته ليستنشق الهواء الذى لا غنى له عنه ، سيُصاب دماغه بأقسى رجفة فى الوجود . إن صدى الصوت الواحد لا يُؤنس ، إنه يوحش . . يزلزل العقل . . يورث الجنون .

وما بلغت ترى ذات الوجه الغريب إلى هذا الحد حتى اشتد صوتها واحمرَّت عيناها ، فأمنت أنها صاحبة رسالة كانت مدفونة فى أعماق صدرها ، فدنوت منها ، وقبضت على يدها ، وقلت لها

أيتها الحبيبة ، إنى رجوتك مرة أن تجنبينى الثناء على خَشِية
 أن أصاب بالغرور ، وأنا أيضاً أكره أن أثنى على غيرى خَشِية
 أن يتوهم ما أتوهم ، ولكنى مع ذلك لا أملك إلا الثناء عليك .
 إنك تتكلمين بجرارة المؤمن الملهَم . فقاطعتنى قائلة : أيتها الأخت
 أيجوز أن نتقارض الثناء فى هذا الموقف ؟ بصّرينى بعيوبى حتى
 أصبح خليقة بحمل رسالة الإصلاح ، وحتى يرى الخلق أنى
 تأدبت بمبادئ قبل أن أدعوهم إليها ، وحتى يعلموا أن أول مرحلة
 من مراحل المثل العليا أن يُبرىء الخلق نفسه من العيوب
 والنقائص . ولعمري إنها أشق مرحلة . فقلت : أيتها الحبيبة ،
 حالفك التوفيق ..

٢٣

طال انتظارى ولم تعد تربنا العزيزة ، ولم يصل منها خبر ، فاستحشيت
 الشوق إليها . فخرجت وحدى مسترشدة بذاكرتى . وما كدت
 أسير قليلاً حتى رأيت علاقاً من أولئك العمالقة الطغاة ، فتجنبته
 لأنى أعلم أن السلامة فى تجنب الشر . ولكن حذرى الذى
 فطرت عليه ألهمنى أن أنظر إليه بطرف عيني ، فإذا هو يرمقنى

بنظرات حداد ، فأسرعت في السير ، وألقيت عليه نظرة ثانية ،
فإذا هو يتبعني ، فحدثني نفسي أنه يُضمر شراً ، فتباطأت لأتبين
حقيقة مقصده . فإذا هو يُسرع نحوى يطلبني ، فقلت في نفسي
أيتوهم هذا العملاق أن ساقيه الطويلتين تتغلبان على ساقَي
الدقيقتين ؟ إنه مخطيء ، لأنه محروم مما جُبِلنا عليه من الحرص
والحذر . وتظاهرت بالعشور بحجر ، ونظرت إلى وجهه وإذا الشره
يرسم على فمه ابتسامة الظفر ، وإذا هو يفتح ذراعيه كمن يريد
أن يقبض على لص هارب . فقفزت وعدوت مسافةً طويلة ،
فتوهم أنني ساعتر ثانية وأن التعب سيُجهدني ويوقعني بين يديه
غنيمةً مستساعة . فعدا وعدوت ، وأخذنا نتراكض ، وأخذت
أدور به يمنة ويسرة أعلو نجداً وأنخفض في وهدة . أقفز على
جدار وأنزل في تربة شائكة ، والمسكين يدور إلى أن غمره العرق
وتصبَّب من جبينه ، فأخذ منديله يمسح عرقه ، ثم قاس ما بيننا
من مسافة وتوهم أنه يستطيع أن يُطلق ساقيه في أقصى سرعة ،
فعدت من حيث جاء لأعلمه أن قياسه مضل ، فعاد معي وأخذت
أخفضه تارة وأرفعه أخرى إلى أن ظهر عليه الإعياء فالقنوط .
وعندئذ مددت له حبل الأمل والتجأت إلى جدار أستدعي

الشفق

جسد حليمة ووداد

هَمَّتْهُ وَأَثِيرُ شَرِّهِه ، فَجَازَتْ عَلَيْهِ الْحِيلَةَ وَعَدَا نَحْوِي ، وَمَا كَادَ يَدْنُو
حَتَّى قَفَزْتُ عَنْ الْجِدَارِ ، فَوَقَفَ يَلْعَنُ حَظَّهُ ، وَيَفْرِكُ يَدَيْهِ كَمَا
يَفْعَلُ الْخَائِبُ . فَأَشْفَقْتُ عَلَيْهِ ، وَوَدَدْتُ لَوْ أَنْفَقَ جَهْدَهُ فِي سَبِيلِ
أَجْدَى عَلَيْهِ . وَكَمْ يُنْفِقُ الْخَلْقُ جَهْدَهُ فِي ضَلَالٍ ! وَلَوْ صَوَّبَ
بَعْضُ ذَاكَ الْجَهْدَ إِلَى مَا فِيهِ خَيْرُهُ وَصَلَاحُهُ لَمَا احتَاجَ إِلَى الْعَدْوَانِ
عَلَى الضَّعْفَاءِ . لَوْ بَذَلَ هَذَا الْعَمَلُاقُ بَعْضَ مَا أَنْفَقَهُ فِي مَطَارِدَتِي
وَمَلَا حَقَّتِي عَلَى حَرْثِ أَرْضِ لِحْصَدِ خَيْرًا كَثِيرًا ، وَلَوْ بَذَلَهُ فِي صَنْعِ
آلَةٍ لِبَاعٍ وَاشْتَرَى . وَلَكِنْ مَا عَلَيَّ ، فَإِنِّي خَرَجْتُ لِأَدَاءِ وَاجِبٍ
فَلَأَسْلُكَنَّ سَبِيلِي ، وَلِيَذْهَبَ الْعَمَلُاقُ حَيْثُ شَاءَ .

أَخَذْتُ أَسْتَقْصِي الطَّرِيقَ فَإِذَا الْمَسَافَةُ الَّتِي قَطَعْتُهَا طَوِيلَةٌ حَقًّا
وَإِذَا أَنَا فِي أَرْضٍ شَاسِعَةٍ . لَقَدْ سَرْتُ أَكْثَرَ مِمَّا تَوَهَّمْتُ . وَلَقَدْ
سَارَ صَاحِبِي الْعَمَلُاقُ أَيْضًا أَكْثَرَ مِمَّا تَوَهَّمُ ، وَلَوْ حَسِبَ أَنَّهُ قَاطِعُ
هَذِهِ الْمَسَافَةِ لَمَا حَمَلَ نَفْسَهُ هَذَا الْعِنَاءَ ، وَلَكِنَّهُ عَمَلُاقٌ يَسْتَقْصِرُ
مَا نَسْتَطِيلُ ، وَيَسْتَقْرِبُ مَا نَسْتَبْعِدُ ؛ فَهَلَتْ نَاحِيَةٌ وَيَمُتُّ شَطْرُ
مَرْتَفَعٍ تَتَوَسُّطُهُ شَجَرَةٌ كَبِيرَةٌ مِنْ شَجَرِ الْبُلُوطِ الضَّخْمِ ، فَقَلْتُ
نَعْمَ الْمَقَامُ ، وَنَعْمَ الْمَعْتَصِمُ . وَارْتَقَيْتُ الْمُهْضِبَةَ وَجَلَسْتُ أَسْتَظِلُّ
مِنْ حَرَارَةِ الشَّمْسِ الَّتِي كَانَتْ فِي وَسْطِ السَّمَاءِ .

جلست أتأمل ما حولى . وإذا على مسافة قريبة من أمامى
طريق عريض اختطته العمالقة لأنفسها . وإذا على يمينى ويسارى
أرض فسيحة تستدير فى اتساع حتى تشمل الهضبة ، ولكنها
تنبسط من ورأى أكثر مما تنبسط على جانبى . ونظرتُ حول
الشجرة فإذا حصى كثير ، وإذا آثار موقد ، وبعض الهنات ،
فأخذت أنقر وأستمع بالهواء العليل ، ريثما أستجم وأتابع السير
إلى تلك الصديقة العزيزة .

واستوقف نظرى عملاق يسلك الطريق التى أمام الهضبة فتأملته
خشية أن يكون صاحبى فيعكر صفو مجلسى . وأخذت أتابعه .
وإذا هو عملاق آخر . فحدقت إليه فإذا عتلَّ مشمخرُ الأنف
مصعّر الخدين منتفخ الأوداج فقللت : أتغذاه قبل أن يتعشانى .
وجمعت حولى حصى دقيقاً ، فما كاد يظهر حتى حصبته فوقعت
الحصاة على زجاجة تستر عينه . ولولاها لفقات عينه ، فوقف فجأة
مذعوراً ، وأدار وجهه صوب الشجرة ونظر ، فلم ير أحداً . ويظهر
أنه استصغرنى فتابع سيره ؛ فأخذت حصاة ثانية وسددتها إلى
أنفه الضخم الأحمر ، وأنا أرجو أن تُفرغ ما فيه من كبرياء
وطغيان ، فيعود أنفه كما يجب أن يكون من الوسامة والاعتدال

والتواضع . وما كادت تقع الحصاة حيث صوبت حتى صاح :
 وآ أنفاه . . فلم أستطع أن أحبس نفسي عن الضحك ، فارتفع
 صوتي ودوى في أذنيه الطويلتين ؛ فنظر إلى دهشاً ، وقال
 بصوت مرتفع يستر ذعره : مَنْ هناك ؟ وهممت أن أقول له : أنا . .
 لأعلمه أن الاستخفاف بخلق الله الضعفاء مسلك شائن . ولكني
 صمت لأختبر شجاعته . ولما لم يسمع جواباً أخرج منديلاً ووضع
 على أنفه الدامي وهول . . . إلى أين أيها العملاق ؟ فما سمع هذه
 الجملة حتى التفت برأسه دون سائر جسمه ، وساقاه من تحته
 ترتعدان كأنه أمام أسد مفترس . . . إلى أين أيها العتل ؟ وهنا
 أعاد رأسه إلى الأمام وشرع يعدو كأنه في سباق . . فأرسلت
 ضحكات كانت تقع على رأسه كصوت الرعد في الليلة الحالكة .

اكتفيت بهذا المشهد ، وجلست أتأمل طباع هذه العالقة
 الغريبة الأطوار . ترى الواحد منهم إن استضعف مخلوقاً من
 مخلوقات الله يسير في أمن واطمئنان ، تأخذه حمية الشره ،
 وتملكه شهوة الطمع فيطارده فريسته في قسوة الباغى . فإن
 استخذت الفريسة انقضَّ عليها وافترسها ، وإن أبت عليه احتال
 لها ، وإن طالت عليه تصبر إلى حين . وإن كان المخلوق عزيزاً

الحكم عند رزق النعمان والحمد لله

الجانب معتصما بقوة طلب العملاق الأمان ، وتظاهر بالقناعة بالحرمان . وإن صاوله الخلق وبادأه العدوان استخذى العملاق وولى هاربا .

إن الحكم عند هؤلاء العالقة لا يقوم على المثل العليا ، ولا على المبادئ الصحيحة ، وإنما يقوم على أساس واحد : هو القوة . ولو كان الخالق يعلم أن خلقه سيستغلون حكمته في خلقه الكبير والصغير ، والقوى والضعيف ، لسوى خلقه على غير هذه الصور ، وجعلهم أمة واحدة متساوية الأجسام والأحجام والعدة والقوى . ولكن الله يعلم أن العالقة لا تعدم حيلة للخروج عن كل تسوية يرتئها . ولذلك خلق ، وحمل كل مخلوق وزره على كتفه .

لست مكلفة أن أبلو العالقة ، ولست منهم وليسوا مني ، وإنما طاردني واحد منهم وأخرجني عن قصدي ، ودفعني إلى هذا الاختبار دفعا ، ولست أحب التماذى في الشر ، وإن أركبته بالقوة . .

تركت ذلك المجلس الأنيق وهرعت أبحث عن مسكن صديقتي العزيزة ، وجددت في السير متجنبية كل عملاق ؛ وبعد سير مضمّن بلغت المسكن ؛ فسرت نحوه بحذر ، وجلست تحت السور

قليلاً أسترّق السمع ، وإذا صوت غناء يندفع برفق وعذوبة .
يا لله ! أترام ينشدون فرحين ؟ أترى ذلك من عمل تربي
العزيزة ! وقفت ونظرت فإذا هم في حلقات يرقصون ، وإذا في
وسط حلقة كبيرة صديقتي تغني فرحة ، ومن حولها يرد عليها .
ليتني أستطيع أن أقفز لأكون في وسطهم أشاركهم في غنائهم !
ليتني واحدة منهم ولو مدة قصيرة !

هممت أن أقفز فردّني عقلي . ورأى أولاد ينتظرون ، ورأى
أتراب يستفقدون ، ومن يضمن لي العودة إن دخلت ؟ ولم أضع
نفسى في هذا المأزق ؟ ألم يكن غرضى أن أتتحقق من أمر صديقتي
العزيزة ؟ لقد بلغت الآن ما أريد ، إنها سعيدة ؛ ومددت عنقي
ونظرت ثانية ، وإذا الغناء يشتد في انسجام ورفق ، وإذا السعادة
تعم الأسرة جميعها ، وإذا صديقتي تمنعني في الغناء . نظرتُ إليها
نظرات سريعة مودّعة ، وقلبي ينفطر شوقاً للقائها ... ولكن إلى
المأوى . . إلى الواجب فلاسرعن ، وأنت أيتها الأخت الحبيبة
لتحرسك العناية الإلهية ، وليبرد الله شوقى بلقائك .

الحبيب عبد الله السويدي

قصص على أترابى ما رأيت فى أثناء زيارتى لصديقتى ذات الوجه الغريب ، فوق فى قلبهن من السرور مثل ما وقع فى قلبى لتوفيق صديقتنا العزيزة فى إصلاح عشيرتها . ولمنى لأنى ما دخلت مأواها .

أما ما وقع لى مع العالقة فقد أثار سخطهن وحنقهن ، فقالت تربى العالقة : عجيب أمر هذه المخلوقات كيف تتعاشر وتتعامل ، وكيف ينجو الضعيف من أنياب القوى ؟ لا بد أن تكون حياتهم سلسلة من الفتن والحروب ؛ قالت ترب : لعلهم — وهم عمالقة متساوون فى القوة — يتكلفون السلم ، ولا يقع بينهم ما نتوهم من قتال وصراع ، فقلت : ما أظن الأمر كما تقولين أيتها العزيزة ، لأن الضعفاء موجودون فى كل جيل من الخلق ، وكل مستقر من الأرض ، ولا بد أن يوجد بين العالقة القوى والضعيف ، الطموح والخنوع ، الظالم والمظلوم ؛ وإذن لا بد أن تكون الفتن والحروب بينهم مستمرة .

فقلت تربى العالقة : ترى على أية قاعدة يقوم هؤلاء المخلوقات

بعضهم بعضاً ؟ لشد ما أحب أن أعاشرهم مدة لأختبر بنفسى
أحوالهم ؛ فقلت : كثيراً ما يغنى النظر عن التجربة ، والحلوق
أعجز من أن يحيط بكل شىء ويميز كل شىء ، ولذلك يستعين
بالقياس على إدراك ما لم يرو محاكمة ما لم يختبر ؛ قالت ترب :
وكيف ترين يقوّم بعضهم بعضاً ؟ أم ترين أن ليس ثمة قاعدة ؟
قلت : لاشك فى أن عندهم قواعد ؛ قالت : وماذا تكون ؟ قلت :
قد يقوّم بعضهم بعضاً بالقوة ، فيقولون : فلان بقدر اثنين
أو ثلاثة أو أربعة .

وقد يقوم بعضهم بعضاً بالجاه ، فيقولون : فلان جاهه ضعف
جاه فلان أو ضعفاه ، أو ثلاثة أضعافه .

وقد يقوّم بعضهم بعضاً بالفضائل ، فيقولون : عند فلان أربع
فضائل ، وعند فلان خمس فضائل ، وعند فلان ست فضائل ،
وعند فلان جميع الفضائل .

وقد يقوّم بعضهم بعضاً بالمال . فيقولون : فلان يساوى
كذا وكذا مالا .

وقد يقوّم بعضهم بعضاً بالردائل ، فيقولون : فلان أقدر الخلق
على الرياء ، وفلان أقدرهم على النفاق ، وفلان أقدرهم على الغش ،

وفلان أقدرهم على الكذب ، وفلان أقدرهم على إيذاء الخلق ،
وفلان أفسد خلق الله ، وفلان خائن ، يبيع دينه ودنياه بأقل ثمن ،
وفلان جمع نصف الرذائل ، وفلان أحاط بها جميعاً . وهكذا .
وقد يقوم بعضهم بعضاً بالعقل . فيقولون : فلان ربع عاقل ،
وفلان كامل العقل .

وقد يقوم بعضهم بعضاً بالعلم . فيقولون : فلان ربع عالم ،
وفلان نصف عالم ، وفلان كامل العلم .
وقد يقوم بعضهم بعضاً بالنسب . فيقولون : فلان شريف ،
وفلان حسيب ، وفلان عصامي ، وفلان هجين ، وفلان مقرف .
وقد يقوم بعضهم بعضاً بالوزن . فيقولون : فلان وزنه كذا
وكذا رطلاً وهكذا .

فقلت ترب : ما أكثر موازينهم ! فقلت تربى العاقلة :
أليسوا عمالقة ؟ فقلت الترب : ألكونهم عمالقة يجب أن تكثر
موازينهم ؟ فقلت تربى العاقلة : للعمالقة أحكام قلت : بل
لهم ظروف وحالات هي التي استدعت كثرة الموازين . فقلت
الترب : كيف تختلف الموازين باختلاف الأحوال ؟ فقلت :
عند ما يكونون في حالة توحش وعدوان يقومون بميزان القوة .

وعند ما يكونون في حالة غفلة عقلية وخلقية يقومون بالمسال .
وعند ما يكونون في حالة انحلال واضمحلال يقومون بالردائل .
وعند ما يكونون في حالة ارتقاء وازدهار يقومون بالفضائل .
وعند ما يكونون في حالة سمو في الفكر والعقل يقومون بالعقل
وهكذا

فقالت الترب : عجبا لهم ! وكيف يقبلون بهذه المتناقضات ! ،
فقلت : أيتها العزيزة : إن الضلال لا يأتيهم من خارج إنه يأتيهم
من أنفسهم . إن الحالة التي يكونون عليها هي التي تفرض عليهم
المتناقضات فيقبلونها صاغرين . ألسنت ترين أن الجائع لا يفكر
إلا في الطعام ، والخائف لا يفكر إلا في الأمان ، والمهزوم لا يفكر
إلا في النجاة ؟ فالجائع يرى الشعب مثله الأعلى ، والخائف يرى
الأمان أمنيته الكبرى ، والمهزوم يرى النجاة غرضه الأسمى .
ويرون كل من كان حائزا ما فقدوه أسعد خلق الله حالا ، وأكملهم
خلقا وخلقا ، ويضعونه في المرتبة العليا ، ثم ينحدرون درجة
فدرجة . وهذه هي فتنة الحالات التي تورث تعدد الموازين .
فقالت تربى العاقلة : أو ليس يصح أن يكون للعملاق قصد . من
تعدد حالاته ؟ قلت : إن كان العملاق مختاراً في وجود تلك

نصفه من الإنسان
الإنسان ١١٧

الحالة ، فنعم . وإن كان مقهوراً ، فلا . قالت الترب : إذن قد تفرض عليهم حالات ؟ قلت : نعم قد يفرض عليهم أن يزونا الناس بغير موازينهم . فيضعون الجاهل فوق العالم ، والشرير فوق الفاضل ، والظالم فوق العادل ، والجاحد فوق المؤمن ، والخائن فوق الخالص ، والقاعد فوق الساعي .

فقلت : أف فقلت : ولكن هذه حالات لا تدوم فقلت تربى العاقلة : ولو قدر لك أن تضعى ميزاناً صحيحاً دقيقاً ، ثابت الأوزان ، فكيف تقوّمين ؟ قلت : أيتها الأخت ، ليس المخلوق جسماً مسطحاً حتى نزنه بميزان واحد . فقلت ترب : إذن تجوزين تعدد الموازين وتناقضين نفسك ؟ قلت : لا . إن المخلوق فى نظرى جسم ذو حجم يقوم كسائر الحجوم ، بالطول والعرض والعمق . ففهمت الترب طويلاً . فقلت : رويدك أيتها الأخت ، لا أقصد حرفية ما أقول . أقصد إن للمخلوق ثلاثة جوانب . جانب هو العقل ، وجانب هو الخلق ، وجانب هو الإشعاع .

إن العقل منحة عظيمة . ولكن العاقل إن تجرد من الخلق فعقله كالعدم . والعكس بالعكس . أمّا الإشعاع فمثله واضح من

الأضواء . فضاء يُشع لمسافة ميل ، وضوء يشع لمسافة بضعة أميال ، وضوء يشع لمسافة أميال كثيرة . فالعقل العظيم الخلق هو فاضل بنفسه وإنفسه ، ولكنه يُقاس في نظري بإشعاعه . فإن كان يفيد أسرته فهو نوع . وإن كان يفيد عشيرته فهو نوع آخر . وإن كان يفيد أمته فهو نوع ثالث . وإن كان يفيد الأمم المجاورة فهو نوع رابع . وإن كان يفيد الخلق جميعاً بلا استثناء فهو أشرف الأنواع وأفضلها . وإن تجرّد من الإشعاع كان كالركيزة في المنجم لا تضر ولا تنفع .

فقلت ترب : أو يكون هذا الميزان ثابتاً في مختلف الحالات ؟ فقلت : نعم ، هو في نظري ثابت ، قالت ترب : أهذا واقع ؟ وما كدت أفتح فمى حتى مرّ بنا شيخٌ عملاق ، ففزعت الأتراب وأسرعت إلى المأوى ، وظللت في مكاني ... ثم تذكرت الأعزاء فصحت بهم أن ادخلوا المأوى ، فدخلوا ، وما أبرئ نفسي من الخوف ، فأنا أضعف من أن أردّ القدر إذا أقبل . ومر الشيخ بسلام ، ولكن الخوف وسوس في صدرى . فهذه أول مرة يدنو شيخ العالقة من المأوى ، وأول مرة نستشعر الخوف في حمانا ، ومن لنا اليوم وقد فقدنا الزوج ، وعزّ النصير ؟ ؟ .

ظللنا بعد ذلك الحادث الذي وقع لى مع العماقة أياما
 لا شغل لنا إلا ذكر العماقة ، وتصور أحوالهم . ويظهر أن الأترب
 استمر أن الحديث عنهم ، ورغبين فى الإطالة والتفصيل ، وكنت
 فى أحاديثي عنهم أعتمد على القياس والاستنباط . وكان الأترب
 يعجبين لما أقص عليهن حتى يذهب بهن العجب إلى حد الاستنكار
 والاستهجان . ولا أدري لم كانت تربى العاكلة أشد الأترب
 عجبا ، وأكثرهن شككا بما أروى من غرائب أطوارهم . ولعلها
 كانت تقدر أن عقول العماقة على قدر أجسامهم ، ولا يجوز أن
 يسكن الجسم الضخم إلا العقل الضخم ، وهذا ولا شك وهم ،
 ففى عالمنا عماقة آخرون ، أصحاب قامات طويلة ، وأجسام مهيبة
 كالجمال والبغال والحمير والخيول وما إليها ، وليس فيها ما يدل على
 ضخامة عقولها . ولما ذكرت ذلك لربنا العاكلة قالت : وما أدراك
 أن الجمال والبغال والحمير ليس لها عقول أعظم من عقول العماقة ؟
 إن ما تذكرين من غرائب العماقة وترهاتهم وضلالاتهم ليحطهم
 عن قدر العماقة الآخرين ، فقلت : أيتها الأخت ، إنى لا أحدثك

عن خبرة عامة شاملة ، وإنما أعتمد على القياس والاستنتاج ،
ومن يدرى ؟ لعلى إن زدت اختباراً زدت ثقة بصحة ما أقول ،
ولكن ألت ترين أن العالقة هم الذين يسخرون الجمال والبغال
والحمير وما إليها لأنفسهم ؟ ولو كانوا دونها عقلاً لما سخروها ، بل
لكان الأمر بالعكس . فقلت ، أنت تحمليني على ما رأيت ، وأنا
ما رأيت شيئاً ، وما أدرى أركب العملاق الحمار أم يركب الحمار
العملاق ، ولذلك لا أستطيع أن أثبت أو أنفي ، ولكني أذهب
مذهبك في القياس والتقدير ، ولا يمكن لعقلي أن يتصور أن
العالقة الآدميين أكبر عقلاً من تلك التي ذكرت . قلت : إنك
يا أختي طيبة القلب ، كبيرة النفس ، ولو قدرك أن تخرجي
من مأواك هذا لرأيت العجب العجيب ، فقلت : نعم إنني لم أخرج
من مأواي هذا قط ، ولشد ما أحب أن أضرب في الأرض ،
وأختبر سلوك الخلق وطبائعهم . قلت : ليتنا نسطحب في جولة ،
قلت : ولكني لا أجرو على الخروج ، وأرى طرفي يرتد حسيماً
حين يرتفع إلى مخلوق من المخلوقات خارج المأوى . قلت : أيتها
العزيرة ، لم يخلقك الله للمأوى ، ولو شاء ذلك لخلقك معطلة
الحركة ، ولكنه ركب فيك قوة السير والسمع والبصر ، لتمشي

وترى وتسمى . وإن التزام المأوى تعطيل لقوى ركبها الخالق

فيك ، بل هي جحود لنعمته ، وثورة على مشيئته . قالت :

يا أختي ، أتقولين هذا وقد بلغت من السن عتياً ؟ قلت : أقول

هذا ما دام في جسمك دمٌ يدفعك إلى الأمام والوراء . قالت :

ولكن العادة هي التي تحكمت . قلت : ليس للعادة حكم مع وجود

مشيئة الله ، وفطرة سليمة ، فالله خلقك لتضربني في الأرض ،

والفطرة تكونت وفق المشيئة الإلهية ، وكل عادة تخالف المشيئة

والفطرة فاقذف بها إلى جهنم . قالت : لله ما أبرعك في الإقناع !

وأحسب لو أن الخلق يسرون حسب ما توحى إليهم عقولهم

وفطرتهم لانتقلت نظمهم وتقاليدهم جميعها رأساً على عقب . ترى

كيف يسير الخلق الآن ؟ أبحكم عقولهم وفطرتهم أم بحكم فطرتهم

دون عقولهم ؟ قلت : إنهم تارة يسرون وفق العقل والفطرة ،

فستقيم أمورهم ، وتارة وفق العقل دون الفطرة ، وتارة وفق الفطرة

دون العقل ، وتارة ضد الفطرة والعقل معاً ! ولذلك فهم في تناقض

واضطراب وسوء حال ، قالت : أيتها الأخت ، لشد ما أحب أن

أرى الخلق يسرون بأحكامك مدة من الزمن . لأرى كيف

يكون حالهم . قلت : ليت ... وليت لا تغنى ، إنما يغنى العمل

والتفتنا صوب الساحة ، وإذا الحب يكثر . فقالت : أبشري خيراً ، لقد بدأ الخلق يسير وفق هواك .

وأوينا إلى مضاجعنا مبكرين ، وقد نعمنا بالطعام والشراب . وفي صباح اليوم التالي شعرنا بحركة غير مألوفة خارج المأوى ، ففزعنا . وبعد قليل فتح الباب ، وإذا بعملاق يدخل المأوى وفي وجهه شر مرّوع . فترا كضنا في المأوى وهب الأولاد من نومهم مذعورين أشد الذعر . وجالت يدُ العملاق فينا جولة الإرهاب . فقبضت على أترابي جميعهن الواحدة بعد الأخرى . فصحبنا وصاح الأولاد ، والعملاق منصرف عنا . وبعد أن خرج نفر الأولاد مسرعين نحو الساحة ، وخرجتُ وجسمي يرتعد من الذعر . وأخذت أنفقد الأعضاء واحداً واحداً ، فإذا هم جميعاً في الساحة فجمعتهم وحاولت أن أزيل ذعرهم ولكن من أين للمذعور أن يطمئن المذعور ؟ ومن أين للموتور أن يواسي الموتور ؟ لقد حلت بنا مصيبة تجل عن العزاء والتواسي . تجلّت في ساعة يعزُّ فيها التجلّد ، وتصبرت في ساعة لا يجدى فيها الصبر . قال الأعضاء والدموع تنهمر من عيونهم : إلى أين سيمقت أمنا ونساؤنا ؟ فأخذت أترضاهم بذكر ألطف الاحتمالات وقلت : لعلهم نقلوا

إلى مأوى آخر . فقالوا : كيف يُشتت الشمل ، ويُحال بين الأم والأبناء ؟ وأيا كان المكان الذى يسقن إليه فإنهن لن يُعدن إلينا . قلت وقد أعجزتنى الحيلة وخانتى المنطق : ذلكم ظلم العمالة ، ولا حيلة لنا سوى التذرع بالصبر والركون إلى القدر

لله ما أقسى الدهر ! هذه أسرة آمنة وديعة ، تبطش بها يد عملاق فتهد أركانها وتزلزل كيانها ، وتورثها الحزن والألم فى غمضة عين . ماذا جنت هذه الأسرة حتى تحل فيها النعمة والبطش ؟ وماذا اقترفت من ذنب حتى تعاقب أقسى عقاب ؟ إني وحدي أعلم أين سيق الأتراب . فقد لحث فى عين العملاق شراً يشبه طريق السكين الحادة . إن القتل جريمة لا تعتفر . ليتنى صدقت تربي العاقلة حين قالت إن عقول الجمال والحمير والبغال أكبر من عقول أولئك العمالة . ليتنى صدقتها فأرضيتها وأرضيت الحقيقة التى نطقت بها . أنا التى بلوت العمالة ، ولمست مساوئهم ووقفت على حقيقة حالهم أخالف تربي العزيزة فى الحكم عليهم وهى التى ما بلت شرهم ، ولا ذاقت حلومهم ومرهم ! أنا التى أعتمد على القياس والاستنتاج أنا قوض نفسى بنفسى وآبى أن أقبل حكماً تدعمه المشاهدة ويؤيده الاختبار .

وامصيبته !... واثكله !.. أحقاً سنبيت في مأوانا والأتراب
في غير دنيانا؟ أى مأوى يسعنا؟ وأى دنيا تسع لأحزاننا
والآلامنا؟ أى ماء يستساغ؟ وأى طعام يستمرأ؟ بل أى حياة
تطاق بالفراق وشتات الشمل؟ إني أحس أن جلدى لا يسعنى،
وأن دمي يكاد يتفجر في عروقي.

من هؤلاء الأولاد؟ ومن لى لنفسى؟ ولكن، على عاتق
مسئولية لا أستطيع أن أغفل عنها، لقد ألزمت نفسى المحافظة
على هؤلاء الأعداء، وأنا الآن أشعر بأن مسئوليتى تضاعفت،
فقد وُضع في يدي وحدى مصير أرواح بريئة.

إلى المأوى يا أعزائى لقد أقبل الليل، إلى المأوى، ففي ظلمة
الليل سكن للشكالى واليتامى، إلى المأوى من شر الزمان.

الاستسلام للعنف ٢٦: المحلل النفسي

اشتد ألم الأولاد لخطف الأتراب وانقلب إلى حقد حاد.
والحقد يتفجر في صورة عدااء أو صراع. وكُم مرة حاولت أن
أعالج الألم لأمنع تطوره إلى صراع أو عدااء، لأننى أعتقد أن كلا
هذين المظهرين يخرجهما الطغيان من حكم العقل إلى حكم العاطفة

وويل للعاطفة إذا تحكمت في شر . فإنها تبيح كل ما يباه الخلق والمنطق والقوانين العامة . وقد كانت سورة الفتوة تعين على تأصيل الحقد . ولم تكن الأيام لتعينني على تخفيفه ، لأن آثار الأثراب في المأوى والساحة كانت أبلغ من أن تمحى ، ولأن الحقد مرض عضال يزداد مع الأيام

ويظهر أن مبالغتي في معالجة الحقد دفع فريقاً من الأولاد إلى التشاور سرّاً في أمرهم ، والاتفاق على الانتقام من العالقة . واستطاع الأولاد جميعاً أن يجمعوا رأيهم ويحددوا خطتهم ، وزعموا عليهم واحداً عُرف بأنه أكملهم عقلاً وأشجعهم قلباً ، وأجملهم خلقاً . إن هذا الذي زعموه يُعطيك وجهه صورة فتى رشيق فاتن كامل الحسن . ويلاه من عينيه إن نظر ! ويلاه من طلعه إن أقبل ! ويلاه من صوته إن تغنى أو تحدث ! أما عقله وقلبه فكعينيه صفاء وحدة ونفاذاً

وفي الصباح الباكر ففتح الأولاد باب المأوى في غاية الرفق والاحتراس ، وأخذوا يتسللون منه الواحد تلو الآخر . وهم يظنون أنني غافلة عنهم بالسبات العميق . وما دروا أنني اتخذت من عيني ديدبانا عليهم ، وأنى شعرت بحركاتهم منذ فتحو الباب إلى أن

خرجوا . فارتبت في أمرهم ، ولحقت بهم قبل أن يصلوا إلى الثغرة
 المعهودة التي أقاموها في الجدار . وما رأوني حتى بهتوا . فعدوت
 إلى الثغرة وسددتها بجسمي . وقلت : إلى أين أيها الأعزاء ؟ فلم
 يجيبوا . فقلت أخبروني إلى أين تذهبون لأذهب معكم ، أو
 يصح أن تغادروني وراءكم في المأوى ؟ فاحمرت وجوههم خجلاً .
 ولكنهم التزموا الصمت . فأقبلت نحو زعيمهم وقلت : أيها
 الحبيب ، ما تعودتم أن تسكتوني أمراً ، وما تعودت أن أكتنمكم
 أمراً . فأخبرني الآن إلى أين تذهبون في هذا الصباح المبكر ؟
 فقال ليس في كتماننا أمراً ما يحط من مقامك عندنا . فأنت
 أيتها العزيزة لنا في مقام الأم والأب . وما كنا لننسى صنائعك
 ولكننا نريد أن نقضى حاجة من دونك . وسنعود إليك قريباً
 فقلت : إن كنتم تتخذوني أباً وأماً فلا ينبغي أن تبرموا أمراً دون
 اطلاعي . ولست أبيع لنفسي أن أخالفكم فيما عزمتم عليه إن
 كان فيه صلاحكم . فقال أحد الأولاد : لنطلع أمنا على ما عزمنا
 عليه . وسرت كلمته بسرعة في رفاقه ، فقالوا جميعاً بصوت واحد :
 نعم لنطلعها . فتقدم الزعيم وقال : أمنا العزيزة ، عزمنا على الانتقام
 من أولئك العالقة الطغاة الذين انتهكوا حرمة بيتنا ، ووترونا في

المستضعفين منا ، ولو أنهم تعدوا علينا لما بلغ الجزع والألم هذا المبلغ . فقلت : هل فكرتم في قوة العاقلة ؟ قال : فما ينبغي للموتور أن تمنعه قوة خصمه من الثأر ، إن العاقلة سلبوا نفوساً عزيزة وتركوا نفوساً رخيصة ، وبذل الرخيص في سبيل الغالي ما يحتاج إلى فكر . فقلت : وإن قضى عليكم العاقلة فتخسرون خسارة مزدوجة . قال : لا خسارة في سبيل أداء الواجب . قلت : ألا تريدون أن تؤدبوا العاقلة لتقتلوا من نفوسهم أصول البغي والعدوان ؟ فصاحوا جميعاً . بلى قلت : إن عملكم سيقوى فيهم العدوان . فظهرت الدهشة على وجوههم ، وقالوا : كيف ؟ قلت : لأن مقابلة الشر بالشر والظلم بالظلم والعدوان بالعدوان ستؤدي إلى نتيجة واحدة لا شك فيها . قالوا : ستؤدي حتماً إلى الانتقام ، وهو النتيجة التي نريدها . وأثارت كلمة الانتقام نفوسهم وتدافعوا يطلبون الثغرة . فقلت : رويدكم أيها الأعضاء ! لن تكون النتيجة الانتقام ؟ إنها ستكون إعلاء شأن الظلم والطغيان . فالتفت بعضهم إلى بعض دهشين وقالوا : كيف ؟ قلت : ستكون النتيجة المحتومة أن يصرعكم العاقلة ، وعندئذ يكون الظفر للقوة . أفتريدون أن تتحكم القوة في الخلق ؟ أم تريدون أن يكون

الحكم للحق وحده ؟ ومن جهة ثانية إن علاجكم الذى ترتأونه لا يجديكم نفعاً ، ولا يوصلكم إلى حق ، لأن المعالقة ستستنزف قوتهم وتستثار حميتهم ، فيمعنون فى البغى والعدوان ، فتكونون قد أعنتم الظلم على غيركم من الخلق من حيث أردتم أن تكافوه . فرأيت على وجوههم أمارات الهدوء ، فقلت إن كنتم تريدون أن تنتقموا حقاً فأنا معكم . فقالوا جميعاً : نعم نريد . . . نريد . . . فقلت : فاسلكوا السبيل الذى أرسمه لكم ، فقالوا : ما هو ؟ قلت : هو سبيل واحد لاثانى له . هو أن تنشروا المبادئ السامية التى تصور الطغيان والبغى والظلم أصدق تصوير ، وتدعو الخلق إلى مكافئتها أشد مكافئة . ما من مخلوق فى هذا الوجود يستطيع أن يعيش فى أمن وسلام إن كان الحكم للقوة . وما من مخلوق يتأخر عن بذل كل مستطاع فى سبيل إزالة حكم القوة . إن الله برأ الخلق للتعاون ، وحكم القوة لا يحقق تعاوناً ما فى العالم أيها الأعضاء ، إن الفاجعة التى حلت بكم ، حلت بى ، بل كان نصيبى منها أضعاف نصيبكم ، ولو كنت أعلم أن الانتقام يشفى ما بنفسى شفاء تاماً ، بأن يهد أركان الظلم من أساسها ، لما تأخرت عنه . إن الانتقام من الخصم القوى المستبد يورث هلاكنا ، ويعزز

فيه البغى والعدوان وهذه نتيجة يجب أن نتجنبها . ونظرت إلى وجوههم ، وإذا الجرات التي كانت تتقد في عيونهم قد همدت فقلت : تعالوا نبحث السبل التي يجب أن نسلكها ، فقال أحدهم : وهل هذه الحادثة التي وقعت لنا تكررت ؟ قلت : كثيراً ، ففي كل بقعة في هذه الدنيا قوى وضعيف ، ظالم ومظلوم ، واطر وموتور ، معتد وبريء ، أولو قدر لكم أن تسيجوا في الأرض لاخترتم بأنفسكم ضروب العدوان ، ولثارت عاطفة الانتقام في نفوسكم مرات كل يوم ، ولكنكم بلوتم من ضروب الظلم أشكالاً وألواناً ، فهناك ظالم يظلم بالقوة دون تستر ، وظالم يطغى ويتجبر منتحلاً المعاذير ، وظالم يتترس بالحق . وهو أبغى البغى ، هذه ضروب من الظلم لن تعالج بالانتقام الذي ائتمرت عليه في أول الأمر ولو كان خصمكم في قوتكم أنتم . أما ترون في كلامي هذا نصحاً لكم وتأييداً لغرضكم الأسمى ؟ قالوا جميعاً : نعم ، فالتفت إلى زعيمهم وقلت : وأنت أيها الحبيب ، ألم تعلم مقدار حبي لكم ؟ لقد نشأتم في أحضاني ، وسعدت بعشرتكم مدة طويلة ، وبنيت عليكم الآمال ، وأوقفت عليكم الرجاء ، وأردت لكم أن تسعدوا وتسعدوا . فكيف تريد أن تهدم ما بنيت ؟ وتخبى مارجوت ؟ أهذا جزائي ؟

فنظر إلى بعينين مغرورقتين بالدموع وقال : يا أماء ، ما أردنا بك
 شراً ، وما كتمنا عنك عزماً إلا لنجنبك التهلكة من دوننا ، فقد
 كنا نعلم أنا واردون سبيل الهلاك ، فأردنا أن نرده وحدنا . إنك
 تعلمين أنك أعز علينا من أرواحنا ، وإن شئت فدونك التجربة
 فاصطنعها . فما تمالكك أن هجمت عليه وقبلت عينيه وقلت
 له : إن حياتكم أعز على من حياتي ، بل هي أعز ما أحرص
 عليه في هذا الوجود . وإن كنت أفرط بأرواحكم فسأفرط
 بروحي قبلكم . إني أرى أرواحكم مشاعل نور ستضيء العالم
 أجمع . ولن يخبو نوركم قبل أن أرى ضيائه قد شمع في جميع
 أطراف العالم . إن الحياة هبة غالية من الله ، ولكنها تنقلب إلى
 أرخص قنية حينما تبذل في سبيل مرضاة الله ، ومرضاة الله لن
 تكون إلا بنشر العدل والحق والسلام بين جميع المخلوقات .

٢٧

لقد توطدت بيني وبين الزعيم محبة لا أدرى كيف أصفها .
 إذا رأيته لمع في قلبي بريق يضيء بين جوانحي . ويملائي بهجة
 وطرماً . وإذا غاب عني شعرت بظلمة في قرارة نفسي . فلا

يستقر لي مقام ، ولا أرضى عن شيء مما أراه حولي . فكأنني
أفقد نفسي و بصرى و سمعى و إحساسى ، ولا يردّها أحد سواه .
ومع أنى أشعر بحب عميق لجميع الأولاد ، وأرى فيهم أمانى التى
كرست حياتى من أجلها . فإن حبي للزعيم من نوع آخر . إنى
أنشرح برؤية الأولاد ، وأطمئن إلى وجودهم بجانبى ، وأطرب
لمداعبهم . ولكن ليس من بينهم أحد يستولى على قلبى ، وينتزع
من أضلاعى إذا شاء ، ويرده إلىّ إذا شاء سواه . فما هذا الذى
أشعر به نحوه ؟ وما حقيقته ؟ أهو إعجاب بعقله الراجح ، وشجاعته
النادرة ؟ أهو تقدير لما يتحلّى به من جمال الصورة ، وبهاء الطلعة ،
ورشاقة الحركة ؟ أهو تأثر بفعل ما فى عينيه من بريق نافذ
ونظرات ساحرات ؟ الحق أنى لا أدري . فأنا التى أستشعر بمواهبى
وأعز بمبادئى ، وأثق بخالقي ، أنا التى فاديت براحتى وحياتى
فى سبيل المثل العليا ، أقف الآن حائرة مستسلمة أمام ظاهرة طرأت
علىّ منذ أيام قليلة ! أنا التى كنت أعتقد أنى أستطيع أن أحل
المشاكل ، وأفك الألغاز ، وأجلو الغوامض ، أقف الآن عاجزة
عن حلّ أمر يتعلق بنفسى وحدها ! .

كان أول عهدى بهذا الشعور الغريب ، ذاك اليوم الذى

ائتمر به الأولاد على الانتقام . فمنذ تلك الحادثة التي اضطرت
 فيها إلى توجيه حديثي إلى الزعيم ، وأنا أشعر بنمو عاطفة في
 سويداء قلبي . كانت النظرة الأولى إعجاباً محضاً ، وتقديراً محضاً .
 ثم انقلبت إلى حب فوله ذى تباريح . أما كيف انقلب الإعجاب
إلى حب فما أدري . وكل الذى أذكره بشيء من اليقين هو أنه
استولى على قلبي استيلاءً تاماً .

لقد عرفته فى أول الأمر جملةً ، فرأيتَه واحداً من أولئك
 الأعداء الذين احتضنتهم وأوقفت عليهم جميع أفكارى وآمالى .
 ثم حينما أحبيته صرتُ أعرفه جزءاً جزءاً . أنظر الى عينيه
 فأراهما كوكبين ساطعين ذوى إشعاع يملأ الدنيا نوراً وسناء . وأنظر
 إلى فمه فأرى خلاصة العلاج قد استدق وملس وسوى فى أجمل
 صورة . وأنظر الى عنقه فأرى غصناً رطيباً كساه ورقُ المنشور ،
 وعطره أريجُ الياسمين . وأنظر إلى قدميه فأرى حبك الجواشن
 ركبتُ غصنى ورد أرجوانى اللون . وأستمع إلى صوته فأسمع
 أعذب الألحان تنبعث من قيثارة داود . كل شيء فيه وكل شيء
 منه يوحى إلى أجمل ما وقعت عليه عيني وسمعت به أذنى .
 وما أشك فى أنه يحترمنى ويحبنى من أعماق قلبه . أما أنه

يشعر نحوى بما أشعر به نحوه فأمر ما أستطيع أن أقطع فيه . لعله
 يضعنى موضع الأم من نفسه ، ولعله أيضاً يحببني حبّ الابن لأمه .
 ولكنى أحبه حباً يختلف عن حب الأم لابنها . أحبه حبى لزوجى ،
 أحبه بعواطفى ودمى وأعصابى . وهو من جهة ثانية يرى ما بينى
 وبينه من خلاف فى السن فيرانى أكبره بشهور عديدة . نعم
 إنى لست من سن أمه . وحرارة قلبى تُنبئنى أن الاختلاف بيننا
 ليس بالحدّ الذى يحول دون تمازج الروحين . ولكن أهذا يأتى
 من تصور الخيال ؟ وما يجدى قولى هذا إن كان هولا يُبادلنى حبى ؟
 فأنا لو كنت أصغر منه سنّاً فلست بكاسبة قلبه ، إن كان هو
 لا يعطينى إياه طوعاً . فالعمر ليس عاملاً من عوامل التفرقة بين
 قلوب العاشقين . فقد يحب كبيرٌ صغيرة ، وتحب كبيرةٌ صغيراً .
 والعاشق لا يجعل العمر شرطاً لعشقه .

فاض حبى فى يوم من الأيام . وقسا علىّ فسلبنى الصبر
 والقصد . فما تماكنت أن خلوت به فى جانب من جوانب
 الساحة . ولم أجد عناء فى هذه الخلوة ، فكأنه كان ينتظر إشارتى
 ليخلوبى . فجلسنا متجاورين ، وعنق كل منا ينحرف فى اتجاه
 صاحبه . وبادأته الحديث فقلت له : يا حبيبى ، أتدرى لم

استدعيتك الى هنا؟ فابتسم وقال: لا. فنظرت الى عينيه نظرة طويلة أستلهم منهم القدرة على الكلام. وقلت له: تفكر لعلك تعرف. فرمى ببصره إلى الأرض وقال بعد تأمل: لعلك تريد أن تسكنيني عملاً دون سائر إخواني. فاضطرب قلبي اضطراباً شديداً. وشعرت بأن عقلي قد خلا من كل شيء، وأن عقيدتي التي أوقفت عليها حياتي قد ملأت ذلك الفراغ جميعاً. وماعدت أرى أمامي شيئاً سوى تلك العقيدة. فكان حيي قد غاض وخرج من قلبي، وعدت إلى حالي القديمة قبل أن أشعر بالحب. فأشحت بوجهي عنه، وجمعت شعوري وتفكيري في لحظة رهيبة. وقلت في نفسي: إنه ينظر إلى كأمه وأبيه ومرشدته، ويتوقع أن أكل إليه عملاً في سبيل تلك العقيدة السامية. إذن لأنتم حيي، بل لأنتمزعه انتزاعاً من قلبي، ولأروض نفسي على التبتل، ولأحدثه في الموضوع الذي يتوقعه. فوقفت ثم ابتعدت عنه قليلاً، ثم جلست ونظرت إلى وجهه لأجاريه في الحديث عن الموضوع الذي فكر فيه. ما كادت عيناي تقع على عينيه حتى غاضت العقيدة، وغاضت المبادئ، وعادت إلى قلبي نيران متأججة. وطفئت سورة الحب على نفسي، فقممت مضطربة

أشد الاضطراب وجلست مجلسي الأول ، ومددت يدي وأمررتها على وجهه الجميل وقلت له : يا حبيبي ، أنت : . . . أنت . . . وأمسكت . قفل فمى وعدمت النطق . فقبض على يدي ، والبشر يتلألأ في وجهه وقال : أيتها الحبيبة . . . وظلت يدانا متماسكتين لحظات شعرت أننا اتصلنا فيهما اتصالاً روحياً ، وتفاهمنا جملة وتفصيلاً . وأطرقت ، وأطرق . وأظن أنه همَّ أن يتكلم ، ولكن قدوم الأعراء علينا في تلك اللحظة حال دون الكلام . ليتهم تأخروا قليلاً حتى أسمع صوت حبيبي مرة أخرى . ولكن ليت لم تجد مرة واحدة في جميع الحالات . أفتجدي الآن ؟

فقممت وتبعني واختلطنا بالأعراء ، وسرنا جميعاً نبحث عن الحب السمين في الساحة .

ومرت أيام وفي نفسي صراع عنيف سلب الشهاد من عيني في الليل ، والراحة والطأنينة من قلبي في النهار . كان الصراع بين عقلي وقلبي . ويعلم الله ما بلوت من جهاد واضطراب في أثناء الصراع . كنت أود أن يصرع أحدهما الآخر بلا رحمة ، وأن يخلص لي واحد منهما . ولكن القوتين كانتا متكافئتين ، فتارة أشعر أن عقلي تغلب وانتهى الأمر ، وتارة أخرى أشعر

أن الغلبة لقلبي ، وأن عقلي مصروع لا محالة . ما شعرت باليقين
 في غلبة أحدهما على الآخر في حالة من الحالات . كان عقلي يقول
 أنا الغالب . لقد قمت على أساس مكين من المبادئ السامية .
 ولست وليد اللحظات ، وإنما أنا وليد أيام وشهور وقد عانيت
 المصائب والأهوال فنشأت كأقوى ما يكون مخلوق من الصلابة
 والإيمان . ولن أراجع ، ولن أستسلم . ويقول قلبي : أنا الغالب ،
 لأنني ^{النفوس} ابن القفطرة والغريزة ، وهما خالدتان . نعم إني ابن الساعة ،
 ولكن أصولي راسخة في أعماق النفس منذ نشأت الحياة . فأنا
 لست وليد الساعة ، ولكني وليد الحياة نفسها ، أخلق معها ،
 وأموت معها . ليس الصراع جديدا فقد ورثته عن آبائي وأجدادي
 منذ ظهرت الخليقة ، وسيكون لي الظفر كما كان لأسلافي من
 قبلي .

بمثل هاتين اللغتين وبمثل هذه الحجج المبينة كان ينطق كل
 من عقلي وقلبي في أثناء صراعهما العنيف . وأنا بينهما كالريشة
 في مهب الريح ، يقذف بي هنا وهناك بقوة . اللهم كن في عوني
 وأرحني من هذا البلاء الذي تملكني واستذلني .

ولما لم يتسع صدرى للصراع العنيف الذى شبَّ فيه ، رأيت
أن أخرج إلى الطبيعة ، أستعين بفضائها الرحب على تخفيف
الضيق الذى ألمَّ بى . فكنت أخرج مع الأعزاء كل صباح
نتريض ونلهو مستعرضين كل ما تنبته الطبيعة من مختلف
النباتات والأزهار .

لقد عجب الصغار لهذه المخلوقات النباتية التى لا يحصيها عد .
فمن أقحوانة ناصعة البياض ، متناسقة الأجزاء ، ملتفة حول زر
أصفر فاقع لونه . إلى شقيقة من شقائق النعمان عريضة الأوراق
ارجوانية اللون معقودة حول زر أسود منمنم . إلى زنبقة ناصعة
البياض محلاة من أسفلها بلون أصفر ، ذات أريج فيّاح . إلى
قرن غزال زهرية اللون طويلة العنق مركبة على ساق رقيق
ذى لون أحمر . الى ما لا يحصى من الأزاهير العجيبة الشكل
واللون والرائحة .

وقد فطن أحد الصغار إلى اتساع الأرض لهذا الكثير من
الأزاهير فقال : أمّا ، أيقع خصام بين هذه الأزهار ؟ قلت

ولم يقع؟ قال ألا تستأثر زهرة بمكان خُصّ لغيرها؟ فضحكت
وقلت: إن هذه الأزهار تنبت وتحيا بوحى الفطرة، والفطرة
عاقلة، فإذا وجدت زهرة أن المكان ضيق انحنت قليلا ونبتت
في مكان آخر. قال: وكيف ترضى الزهرة الأخرى عن مجاورتها؟
قلت: إن الفطرة هي التي توزع التربة على الأزاهير، وهي التي
تكفل لها الحياة، وهي أعقل من أن تحدث ازدحاما يسبب
نزاعا بين مختلف الأزاهير.

واسترعى لون شقائق النعمان الأحمر والأسود نظر آخر من
الأعزاء، فأطال النظر فيها وقال لى: أماء، كيف اجتمع الأحمر
والأسود في زهرة واحدة، ألا يفاخر أحدهما الآخر؟ قلت: إنى
لأعجب لكم أيها الأعزاء كيف تفرضون الاختلاف والخصام في
كل شيء تقع عليه عيونكم، كأنكم تفترضونهما أمراً طبيعياً
لا مفر منه. إن الطبيعة أيها الأعزاء أعلى وأسمى من أن تخضع
جميع مخلوقاتها لهذا النظر الضيق. إنها لا تميز ما تنبت، فجميع
الأحياء على وجهها متساوون. فليس الأسود بأعز من الأحمر،
والأبيض بأجب إليها من الأصفر. وهي قد نوعت عن قصد،
فلم نحاول إساءة فهمها، وتأويله شر تأويل؟ قال: وما القصد؟

قلت : القصد إرضاء المشيئة الإلهية في رؤية الخلق على أجل وأبدع نظام . فلو جاء لون جميع الأزاهير واحداً وشكلها واحداً لانعدم الجمال فيها ، ولكانت الحياة مملة منفرة .

عدنا إلى مأوانا عشية يوم بعد نزهة جميلة ، وما كدنا نبلغ الثغرة حتى أحسسنا حركة غير مألوفة في داخل المأوى ، فوقفنا وهممنا أن نعود خشية أن نكون قد ضلنا الطريق . ولكننا تفحصنا الساحة بقعة بقعة ، فإذا هي ساحتنا . فدخلنا الواحد تلو الآخر ، وإذا الساحة كما هي لم يصبها تغيير أو تبديل . ثم اتجهنا إلى المأوى ونظرنا إلى داخله ، فإذا هناك مخلوقات غريبة عنا ، فوجدت الباب وإذا مجالسنا مشغولة ، ففرغت وصحت : من هنا ؟ فردت على أنثى قائلة : لا تجزعي أيتها الأخت . نحن مخلوقات مثلكم حملنا إلى هذا المأوى ، ولم نعرف أين نحمل . قلت : أهاربات من ضيم وعذاب أنتن ؟ قالت : لا . إنما حملنا اليكم من بيوتنا . قلت : أتمكنن طويلاً هنا ؟ قالت : لا علم لنا بذلك . ودخل الأعزاء ، وتقاسمنا المأوى وبتنا ليلتنا في ضيق . وفي الصباح خرجنا إلى الساحة جميعاً ، ورأيت في وجوه الأعزاء تبراوا واضطراباً . وجاءوا إلى يشكون : المأوى لا يتسع لنا جميعاً . قلت تريثوا أيها

الأعزاء ، فليس من الخلق أن نطرد من نزل علينا ضيفا .
فقالوا : ولكن المأوى أضيق من أن يتسع لنا ولهم .

وجاء وقتُ الطعام ، وانتشر الأعزاء في الساحة دأبهم كل يوم . وتنحيت جانبا أرقب القادمت . فإذا خلاف يدبُ بينهن ، فهذه تستسمن حبة فما تسكاد تصل إليها حتى تقفز إليها أخرى محاولة أن تنتزعها من فمها . وإذا الكبيرات منهن يضربن الصغيرات ، ويمنعن من التماس غذائهن . أشفقت عليهن ، ووددت لو تركن الخصام . فالحب كثير ، والطعام وفير . فذهبت إلى إحداهن وقلت لها : أيتها العزيزة ، لم تضربين هذه الصغيرة ؟ فقالت : يا أختي ، إن في هذه الصغيرة سوء أدب لو بلوته ما أشفقت عليها . فقلت لها : ما رأيتُ فيها سوء أدب . فهي تأكل كما يأكل سائر أخواتها . وليس عقاب سوء الأدب — إن وجد — الحرمان من الطعام . وفيما أنا أحدثها ، إذا صراخ يعلو في جانب آخر من الساحة ، وإذا إحدى الصغيرات تستجير من أخرى كبيرة ضربتها في رأسها ضربة موجعة . فأسرعت نحوها وحلت بينهما . وقلت للصغيرة : لم تعتدين على مقام أختك الكبيرة ؟ فقالت : أيتها العزيزة ، ما اعتديت ، وإنما هي تريدني

على أن أكون خادمة لها ، أجمع لها الحب بنفسى ، وأقدمه لها
 غنيمة باردة ، وهى لا تريد أن تسعى بنفسها وتتناول طعامها
 بجدها . فقلت : يا للعجب ! أبلغت الأنانية إلى هذا الحد ؟
 وأمسكت بالكبيرة وقلت لها : أيتها الأخت ، الأرض فسيحة
 والحب كثير ، فلم لا تتناولين بغيتك بنفسك ؟ فضحكت وقالت :
 ولم خُلق الصغار ؟ قلت : خُلقن للسبب الذى خُلق من أجله
 الكبار . قالت وقد رفعت رأسها متعالية : وما هو ؟ قلت :
 السعى . قالت هذه فلسفة جديدة ما عرفتُها من قبل . قلت : ولم
 خُلقن إذن أيتها العزيزة ؟ قالت : خُلق الصغيرات لخدمة الكبيرات .
 قلت فى كل الحالات ؟ قالت : أجل . قلت : ولم ؟ قالت لأننا
 نشأنا على هذا . فهل يصح أن أشقى فى صغرى وأبلوقسوة الكبيرات
 على ، ثم أشقى فى كبرى أيضاً ، بأن أسعى فى طلب الرزق وحدى ؟
 أليس من المعقول أن أعامل الصغيرات كما عاملتنى الكبيرات
 حين كنت صغيرة ؟ أو ليس الحكم للعرف والعادة ؟ قلت :
 رويدك أيتها الأخت ، ليس الحكم للعرف والعادة ، الحكم
 للحق وحده . فضحكت ضحكة طويلة ، رنّ صداها فى أعماق
 نفسى ، وقالت : عِشْ رجياً تشهد عجباً ! وغادرتنى وهى تخطر

بكبرياء و صلف . كان وقع كبريائها على نفسى أبلغ وأشد من ظلمها الصغيرة . يا لله ما أقبح الكبرياء حين يُرَكَّبُ على الظلم !
إن الكبرياء فى نفسه بلاء ، فكيف إن قرن بالظلم ؟

دخلنا المأوى فى ذلك اليوم مُبَكِّرِينَ . وأخذ كل واحد منا مكانه المعتاد . وبعد قليل دخلت الأسرة الجديدة . ففسحنا لها فى المكان . ولكن واحدة منهن أبت إلا أن تحتل مكان الزعيم . ولما وجدته قد سبقها إليه أرعدت وأزبدت ، وأمرته أن يخلى المكان . فتأثر الزعيم من غلظتها ، ولكنه تأدب وقال :
 لست أبخل عليك بمكانى ، ولكنى كنت أحب أن تتلطفى معى بالكلام . فصاحت قائلة : ولم أتلف بالكلام ؟ أيجرؤ صغير مثلك أن يمتنع عن تلبية طلبى ؟ فما سمع الزعيم كلامها حتى ثار الدم فى وجهه . ولفت الحديث انتباهى فذهبت إليهما وقلت :
 ما الخطب ؟ فأطرق الزعيم ولم يتكلم . فقالت هى : أخجله المنكر الذى ارتكبه . فاستغفره الشهم ، ولكن الحياء تغلب عليه ، فقال بصوت منخفض : يا أمه ، أمرتنى هذه الفاضلة أن أتخلى عن مكانى بالفاظ رأيته قاسية فرجوتها أن تصلح لهجتها ، فتكدرت وأتبتنى بالفاظ جارحة . فقالت : أعصيان ووقاحة ! عندئذ لم

أتمالك نفسي ، فقلت لها : أيتها العزيزة ، رويدك . فليس ما يوجب التعنيف . فقالت : لقد خالف أمرى ، وتواقع على . قلت وبم أمرته ؟ قالت : أمرته أن يُحَلَّى المكان . قلت : ولم ؟ قالت : إنه مكاني . نمت فيه بالأمس ، وهو يلائم صحتي ومزاجي . فهو مرتفع عن الأرض ، وأنا تؤذيني الرطوبة . قلت : أما السبب الأول فلا أقرك عليه . وأما السبب الثاني فمعقول . وواجب على كل من في المأوى أن يقدمك على نفسه حتى تعتدل صحتك ، فتساويننا . فقالت : هذا حكم ما سمعناه في حياتنا قط ، وأنا كان يجب أن أقول لك إنى أطلب هذا المكان لأني أكبر من هذا الفتى سناً ، وأسمى منه مقاماً ، وأشد منه قوة وبطشاً . قلت : أيتها العزيزة ، أنت تصدرين عن مبادئ برئنا منها في ما وأنا هذا . فقالت متهمكة : مبادئكم ! وهل لمثلكم مبادئ يصدر عنها ؟ فغضب الزعيم وتقدم إليها يريد شراً فأمسكت به وقلت له : أيها الحبيب الزم نفسك ، ولا يخرجك كلامها عما ينبغي أن تتحلى به . فقال : طفع الكيل . فقلت : كيملك صغير أيها الحبيب . فعليك أن تستبدل به كيلا آخر . فابتسم ابتسامة الرضى — ويالها من ابتسامة ساحرة من ذلك الفم العاجى ! —

وقال : ساحيني . فالرأى لك . فقلت : أيها الحبيب ، أوسع لها مكاناً بجانبك وغداً نسوّى المسألة بينكما . فانكمش في مكانه . فقلت لها : تفضلي أيتها العزيزة . فنظرت إلى المكان بازدياء وقالت : أتريدني أن أرضى بالتنازل عن إرادتي ، ومعاناة الضيق في هذا المجلس ؟ قلت : إلى غد . قالت : وليس إلى دقيقة . ودفعت الزعيم بمنكبيها بعنف ، واستقرت حيث تريد ، وهي ترضى وتزبد ، فكاد الزعيم أن يقابل القوة بالقوة ، ولكنني أمسكت به وقدمته إلى مجلسي ، وأحطت عنقه بذراعي فاستسلم وأسدل الليل علينا ثوباً كثيفاً ، ولكنني لم أغمض طرفاً . فقد أنفقت الليل كله أفكر فيما رأيت وما سمعت .

على كثرة ما فكرت طوال الليل ، لم أصل إلى نتيجة حاسمة . فقد كانت أفكاري مشوشة ، متقطعة متنقلة ، فما أبدأ فكرة حتى تقفز إلى رأسي فكرة أخرى . وما أمسك طرفها حتى تنتهي إلى فكرة ثالثة . وهكذا إلى ما لا نهاية له . وكيف يصح أن يستقيم الفكر والنفس قلقة تحاول أن تبهر أمراً خطيراً

في وقت لم يخلق إلا الراحة والسكون ؟ .

ولما نبأ بي المقام ، وأضجرني سقم الأفكار ، رأيت أن أترك مضجعي في الهزيع الأخير من الليل ، وأخرج إلى الساحة . وجلست تحت تلك الشجرة التي ظلما كنت أجلس تحتها في الأيام الخوالي . رفعت رأسي إلى السماء ، وإذا النجوم تتلألأ في القبة الزرقاء ، ما بين كبير وصغير ، قريب وبعيد ، ساكن ومتحرك . لم أستطع أن أحصر تفكيري في الموضوع الذي أرقتني ، لأن نجوم السماء كانت تجذب جميع تفكيري إليها . ما هذه العوالم المنتشرة في السماء ؟ وكيف توزعت في أبراجها على هذه الأشكال العجيبة دون أن يزاحم بعضها بعضاً ، أو أن يصدم بعضها بعضاً ؟ يجب أن تكون هذه الملايين من النجوم قد تقاسمت الفضاء تقاسماً قائماً على الحكمة والعدل حتى تجنببت الصدام والزحام . إن هذه السماء بريئة من كل بغى وجور وخصام ، وليس فيها نجم كبير يطغى على نجم صغير ، وليس فيها نجم قوى يستطيع أن يستبد بنجم ضعيف ...

وهذا التوزع العادل في السماء له نظيره على الأرض . فعالم الأزهار الذي شاهدت بعضه في أثناء خروجي مع الصغار في

الأيام السابقة يقوم على نفس النظام العادل الذى تقوم عليه
 النجوم فى السماء . فما رأيت بينها زهرة قوية تبطش بزهرة ضعيفة
 ولا زهرة كبيرة تظغى على أخرى صغيرة . وعلى ذلك يحق لى
 أن أسمى أزاهير الأرض نجوم السماء . فهى نجوم برية مختلفة
 الأحجام والأشكال والألوان والروائح . وهى متعة الخلق فى
 نهاره ، وموضع نظره واعتباره ، ومحل إعجابه وسروره ، ومنبع
 وحيه وإلهامه ، ومثار إيمانه واستسلامه بقدر ما هى نجوم السماء
 فى الليل . . ولورُزقت الأزهار نوراً لأضحت نجوماً متلائة فى
 الأرض . ولكنها حرمت النور ، وعوض لها بالألوان والعطور .
 والنور واللون والعطر أرواح ثلاثة سرها فى علم خالقها .

كان ينبغى للمخلوق أن يستلهم من السماء والأرض نظام
 عيشه ، فيستقر كل مخلوق فى المكان الذى كتب له ، ويجرى كل
 مخلوق على السنن التى قدرت له ، ويعرف كل مخلوق حدوده
 دون أن يلتجئ إلى بغى أو عدوان . ولكن ما أعجب الخلوقات !
 فإنها تستكبر على سائر ما خلق الله فى كونه الواسع الذى لا حد له .
 فتضع العماقة الجبارة نفسها فى المرتبة الأولى لما أنعم عليها من
 بسطة فى العقل ، ثم تضع الحيوانات العجائوات فى المرتبة الثانية

لزعهم أنها حُرمت نعمة العقل والنطق . وتضع النباتات في المرتبة الثالثة ، والجادات في المرتبة الرابعة . ترى أكانوا عادلين منصفين في تقسيمهم ؟ أما طغوا وجاروا ؟ إنا إذا اعتبرنا هذه المخلوقات من حيث تنفيذ المشيئة الإلهية في تحقيق العدل والسلام والتعاون ، لاقتضى أن يُعكس هذا الترتيب ، فنبدأ بالجماد فالنبات فالحيوان فالعالمقة . لأن العالمقة الذين تميزوا بزعمهم بالعقل انحطوا عن عالمي النجوم والنبات بما أفسدوا في الأرض ، وبما اخترعوا من أضاليل وأوهام ، وبما سلكوا من معوج السبل ، وبما ارتكبوا من آثام وأخطاء . لقد ثبت أن عقل العالمقة المأفون أضعف من قوة الفطرة . وما عليهم إن أرادوا صلاح أنفسهم حقاً إلا أن يتركوا عقولهم المأفونة جانباً ، وأن يستساموا للفطرة ، فهي أرشد إلى الصواب والحق .

وجهت بصرى إلى السماء أستلهم سداد الرأى في المشكلة التي كوت جفوني بالأرق ، فإذا النجوم قد غارت وإذا نجم واحد قد ثبت في مكانه في المشرق ؛ هذا نجم الصباح ثبت في مستقره يشيع إخوانه جميعاً بابتسامة الإيناس إلى حين يلقاهم في المساء . أكسبني طول النظر في النجم الفريد تجمع شتات أفكاري ،

فقد كانت متشعبة مع النجوم ، فارتدت الآن موحدة إلى
مكانها من عقلي ، فأخذت أستعرض ماضى القديم حلقة حلقة ،
وطوراً طوراً . ١

لقد نشأت في بيئة ريفية أستمتع بالهواء الطلق ، والأرض
الفسيحة ، أتمس غذائي بنفسى ، وأجمع الحب بعرق جبيني ،
فاكتسبت حرية الحركة ، وصفاء الذهن وسذاجة القلب ،
ونقاء الضمير ؛ كانت حياتى في تلك البيئة متمشية مع الفطرة
الأولى ، ولم يقع لى ما يخدشها أو يفسدها ، وكانت الطبيعة التى
عشت فيها مؤيدة لنوازع الفطرة ، فشبت على الصراحة والصدق
والثقة بالنفس والحب والإخلاص ؛ ثم انتقلت إلى هذا المأوى
فتمتعت مدةً من الزمن بحب زوجى وعطفه ، واستمتعت بحياة
مترفة طعامها كثير ، وماؤها غزير ، ولكنني حرمت حياة الطبيعة
الحرّة ، واصطدمت بمبادئ التى نشأت عليها بمبادئ أترابى ،
نفخصمنى واثمرن بى وتحالفن ضدى ، وخرجت بمبادئ سالمة ،
ولكن نعمة صداقتهن لم تتم إلا بعد أن فجعت بزوجى الصالح ،
فاجتمع على السرور والحزن فى آن واحد . ثم جاءت تربي ذات
الوجه الغريب ، واتصلت بعشيرتها عن طريق الإحسان ، ثم

عادت إلى عشيرتها ، فكانت عودتها أقوى شاهد على أن الظفر
 للفضيلة . ثم رُزقت تربي العاقلة أولاداً فتحوالى باباً جديداً
 إلى عالم الكفاح في سبيل المثل العليا ، فبنيت آمالاً وأحلاماً ،
 وحسبت الدهر قد أقبل معوضاً أحسن العوض ، وما كدت
 أجني ثمار الحياة الجديدة حتى فجعت بأترابي العزيزات ، فتذرعت
 بالصبر والإيمان . ثم تعلق قلبي بحب الزعيم ، وتعرضت لصراع
 عنيف بين عقلي وقلبي . وفيما أعانى أهوال الصراع ، وأتمس الفرج
 من أشد فتنة بلوتها في حياتي ، فوجئت بقدوم أسرة غريبة
 تجمعت فيها مساوئ المجتمع ورذائل البيئة الفاسدة . وأنا الآن
 أبلو محنة لا تقل هولاً عن تلك الفتنة ، ولكنني منفردة في فتنتي ،
 ونتاجها تتعلق بنفسى ، أما المحنة فعامّة البلوى ومصائرهما تتناول
 الأجزاء جميعاً .

إن حياتي قد ساقها القدر في طريق تستقيم تارة وتعوج تارة
 أخرى ، ولم يكن لى خيرة فى السير ، وهكذا حياة المخلوقات جميعاً
 تعلو حيناً وتنخفض حيناً آخر . وهم أضعف من أن يتملكوا
 زمام أنفسهم . ولكن هناك شيئاً واحداً استطعت أن أتمكن
 منه وأن أخضعه لمشيئتي التامة ، وهو : مبادئ السامية التي

استلهمتها من فطرتي الأولى . وسألتزم مبادئ هذه ما حييت ،
لأنني غير مسئولة عن حوادث الدهر ، ولكنني مسئولة عن
مبادئ . وستذهب حياتي مع الزاهبين ، وسينقضي العمر مع
الأعمار ، وسأصبح يوماً من الأيام حفنة من تراب ، وسأصبح
منسية مع الزمن ، ولكن ما يجوز عليّ لا يجوز على مبادئ ،
لأنها ستكون ميراث الأجيال بعدى ، وستخلد على الدهر ،
وسيدكرها الناس في كل عصر مع ما يدكرون من تراث
القدامى ، الذين وهبوا أنفسهم للمثل العليا والمبادئ الفاضلة ، إن
الجسم وما يتبعه من مطامع وشهوات وأهواء مصنوع من مادة ،
والمادة إلى فناء ؛ أما النفس الخيرة الفاضلة ، وما يتبعها من
مبادئ شريفة وأفكار سامية ومثل عليا ، فليست مصنوعة من
مادة ، وإنما هي نفحات إلهية خالدة على الزمن .

وما شعرت وأنا سابحة في لجة الفكر إلا بيد رفيقة تربت على
كتفي . فالتفت مذعورة ، وإذا بيد الزعيم . . . فاستبشرت
بوجهه الصبوح خيراً ، وقمت معه وأنا مؤمنة بأن تاريخي الذي
استعرضته لن يشوّه ، وأني لن أخطيء التوفيق في هذه المرة
أيضاً . . .

٣٠

سرت مع الزعيم وتبعنا الأولاد ، متجهين نحو الريف . فسرنا
 مجدين إلى أن بلغنا مرتفعاً من الأرض فصعدنا فيه ، وجلسنا في
 حلقة كبيرة توسطتها ، وأجلست الزعيم إلى يميني . وبعد أن
 استرحنا قليلاً قلت للزعيم : إني أسفة لما وقع في الليلة الماضية . .
 فقال : لقد وُضعتُ في مأزق حرج اضطرني أن أخرج عن حدود
 الأدب . فقلت : وماذا عزمت أن تفعل ؟ فقال : لا يمكن للمأوى
 أن يتسع لنا جميعاً . ويعزُّ عليَّ أن أغادر للمأوى الذي نشأت فيه
 لأخيه لهذه الأسرة الطارئة . ونحن بين أمرين : إما أن تتنازل
 عن مأوانا ، أو أن نتمسك به ونطرد الغريبات منه . فقال أحد
 الأولاد : لا يُعقل أن تتنازل عن مأوانا الذي نشأنا فيه . والواجب
 يقضى أن تعود الأسرة من حيث أتت . فصاح الأولاد : هذا
 حق . وليس فينا واحد يهون عليه أن يفرط في مسقط رأسه .
 فقال الزعيم : إذن نحن متفقون . ويجب أن نعود حالا وننفذ
 الخطة . وتحرك الأولاد يهمون بالعودة . فقلت : رويدكم أيها
 الأعزاء . أظنون أن الأسرة تخضع لرايكم وتغادر المأوى ؟ فقال

الزعيم : إن لم تغادره طوعاً غادرته كرهاً . وقال أحد الأولاد :
 لقد امتنعنا عن الانتقام من العمالقة خشية أن يبطشوا بنا ، لأنهم
 أشد قوة منا ، وليس الحال كذلك الآن . فقلت : وإن نشب
 بينكم قتال فماذا تفعلون ؟ فقال الزعيم : إن حُملنا على الشر ركبناه .
 قلت : إذن تلتجئون إلى القوة . قال : نعم . قلت : إذن تؤيدون
 سلطان القوة ، وتحكمونه فيما يشجر بين المخلوقات من خلاف ؟
 فقال الزعيم : لسنا مسؤولين عن الخلاف ، فقد سببته الأسرة ،
 والشر بالشر والبادي أظلم . قلت : وإن وقع خلاف آخر
 مع فريق أشد منكم قوة ، فماذا تفعلون ؟ فنظر الأولاد بعضهم
 إلى بعض متسائلين ، ثم قال الزعيم : ندافع دفاع المستميت ،
 فإن تغلبنا ظفرونا ، وإن غلبنا متنا في سبيل الواجب . فقال
 آخر : لو وقع لغيرنا من المخلوقات ما وقع في مأوانا فماذا
 يجري ؟ لنسترشد بتجارب غيرنا . فقال الزعيم : هذا حق ،
 ثم التفت إلى قائلها : أخبرينا أيها العزيزة ماذا يجري ؟
 قلت : يلتجئون إلى القوة كما تريدون أن تفعلوا ، فقالوا : إذن
 نفعل كما يفعل غيرنا . فقال الزعيم : إذن لا يصح أن نلام . فنحن
 أولاً ندافع عن حق لا شبهة فيه ، وثانياً نرد ظالماً حل بنا ، وثالثاً

نفعل ما يفعل غيرنا في مثل حالنا . ورأيت قوله مصيباً . ولكنه
 لا يحل الخلاف ، ولا يلتزم مع المثل العليا التي تمسكت بها طوال
 حياتي . فأنا التي قاومت البغى وحكم القوة ، وكرهت الكبرياء
 كيف أسلم الآن حل هذه القضية للقوة ؟ قلت لهم : ألا تريدون أن
 يحتكم الحق في قضيتكم دون القوة . قالوا : نعم . قلت : إذن
 لا ينبغي أن تلتجئوا إلى القوة . قال الزعيم : و إذن ماذا تفعل ؟
 قلت : إذن ليس لكم إلا أن تنتشروا في هذه الأرض ، وتبشروا
 الخلق بالخضوع للحق وحده ، وتقنعوا الباغى بأن بغيه يرديه .
 وعندئذ تكون قضية عامة إنما قضيتكم جزء منها . ليذهب كل
 واحد منكم إلى بقعة من بقاع الأرض وليوقف نفسه على
 نشر العدل والمساواة والمحبة بين الخلق جميعاً ، ولتكن نفسه
 أصلب من الصخر فلا تلين ولا تستسلم ، لتزدكم المصاعب قوة ،
 والمهالك ثقة بمبادئكم ، والمقاومة إيماناً بالظفر ، قد يستهزئ بعض
 الخلق بكم وبمبادئكم ، وقد تجدون أنفسكم منفردين في مسعاكم ،
 فلا يردنكم ذلك عن تحقيق قصدكم . إن العالم يعيش في لجج من
 الضلال ، وإن قضايا الظلم والبغى والعدوان تتكرر في كل يوم ،
 ولكن الخلق مهياون لتحكيم مبادئ الفطرة القائمة على المحبة

والعدل والمساواة . وإن لم تقلحوا فستفح مبادئكم على أيدي
أعقابكم ، أو أعقاب أعقابكم

هناك ضلالات يجب أن تسألوها من صدور الخلق بالرفق
والحكمة . وهذه الضلالات هي منابع ما بلوتم ويبلو غيركم من
مظالم لا عد لها . ومن هذه الضلالات التي يتردى فيها الخلق ،
أن المخلوق معرض للجوع ، ولذلك يجب عليه أن يجمع معاشه
عن أى سبيل من السبل . والواقع أن هذه ضلالة كبرى .
فليس في الكون معدة تعاني الجوع حقاً ، إلا إن كانت لمسن
أو مريض أو فقير أو صغير . وإنه لعار على الخلق أن يعاني هؤلاء
فراغ المعدة . ولكن هؤلاء قليلون ، بل يكادون يكونون في حكم
النادر ، ومجموع الخلق لا يعدم وسيلة ملء معدته . ولكنهم
يتوهمون تعرضهم للجوع فيشتد جزعهم ، ويرتكبون في سبيل
إبعاد شبح الجوع الموهوم آثاماً ومنكراتٍ هي مصدر شقاء العالم .
فيسلب القوي مال الضعيف ، والكبير مال الصغير . وحين
يتعرض الصغير والضعيف للظلم تنور في نفسيهما أحقاد تدفعهما
إلى ارتكاب الظلم ، وبذلك يورث الظلم ظلاماً والشرّ شرّاً .
ومن ضلالاتهم أن الفرد يستطيع أن يستمتع بالسعادة منفرداً

عمن حوله من المخلوقات . وبتأثير هذا الوهم يسرق اللص مال غيره ، ويلتجئ النذل إلى الخيانة ، ويتوسل الدنيء بالكذب أو النفاق أو الاحتيال . وهكذا . . . يستقل كل فرد باتباع السبيل الذى يجلب له السعادة الموهومة ، دون رعاية لما تنتجه آثاره هذه من شقاء عام للمجموع . ولو اعتمد كل مخلوق على عمله ، وكسب رزقه بعرق جبينه ، وترفع عن خداع غيره أو ظلمه أو خيانتته لاستمتع المجموع بالحب والتعاون والاخاء حقاً .

ومن ضلالاتهم أن المادة هى سبيل السعادة الوحيد . فمن كثر ماله كثر سعادته . وهذه ضلالة من أخطر الضلالات على المخلوقات . فالمادة ما كانت ولن تكون مصدر السعادة . قد تكون مصدر نعيم جسمي آني لبعض المخلوقات . ولكن أكثر الذين تتضخم أموالهم إنما يجمعون المادة لمجرد حبهم إياها ، ومن أحب شيئاً استهان بجميع الوسائل الشريفة فى سبيل إحرازه ، وبذل كرامته ومروءته فى سبيل الاحتفاظ به .

ومن ضلالاتهم أن النصر حليف القوة ، فيتخذونها وسيلة لقضاء حقوقهم ، وحل قضاياهم . والقوة ضد الحق ، لأنه إن وجد

الحق أصبح لا حاجة للقوة.. فأفهموا من يتظاهر بالقوة أن قوته لا تدوم ، وأن الذى يدوم هو الحق وحده ، وأن الاعتماد على القوة إعزازٌ لسلطانها ، وأنه إن استعمل سلطان القوة تردى الخلق فى أكبر ضلالة فى الوجود . فكل قوى فوقه أقوى منه ، ومن التجأ إلى القوة حيناً أُلجئ إليها حيناً آخر ، ومن صرع بقوته يوماً صرعه قوة غيره يوماً آخر

هذه هى أيها الأعزاء وأمثالها ضلالات تتحكم فى الخلق . فإن استطعتم أن تنتزعوها من صدورهم انقطعت أسباب البغى والخصام وجميع المساوىء التى بلوتم بأنفسكم بعضها . هذا هو السبيل الوحيد للانتقام ممن وتركم فى أمكم وصديقاتكم ، وممن نغص حياتكم فى مأواكم .

ولكن لا يُقدم على مقاومة هذه الضلالات إلا من وهبه الله عزماً وحزماً وإيماناً وثقة . لأنه لا سبيلو فى أثناء مقاومته صراعاً عنيفاً ، وكيداً شديداً فاذا تعرض أحدكم لذلك — وهو لا بُدَّ متعرض — فليذكر أن هذا الذى يتعرض له إنما هو نتيجة للضلالات التى يحاربها . ولتزداد مقاومته بازدياد قوة خصمه . وليجاهد بلسانه وماله ونفسه إلى أن يظفر بنشر مبادئه

أيها الأعضاء، أن حياة الفرد جزء من حياة المجموع . فإذا سَعِدَ المجموع سَعِدَ الفرد بسعادته ، وإذا شقى المجموع شقى الفرد بشقائه . حياة المخلوق في نفسها أشبه بثانية في حياة الخليقة أو أقل . فانظروا إلى هذا الزمن ما أقله وما أحقره . ولكن هذه اللحظة أو ما هو أقل من لحظة ، قد تقدر في حياة المخلوقات بسنوات أو قرون ، إن وهبت لخير العالم وصلاحه . إنَّ العالم الذي يتردى في الشقاء كالليلة الحالكة الظلام ، فالشرارة الصغيرة تُحدث فيها نوراً عظيماً ، وكذلك النفس المصلحة التي تبعث في وسط الشقاء العالمي ، تُحدث فيه نوراً عظيماً . فكونوا أتم تلك النفوس . سيحوا في الأرض ، وتوزعوا بين الخلق ، وانشروا بينهم المثل العليا ، والمبادئ السامية . وإني لواقفة بأنا سنلتقي في ما وانا هذا بعد أن نظَّهر العالم أجمع — لا وطننا الصغير فحسب — من هذه الضلالات .

وإني لن أنخلف عنكم فسأعمل كما تعملون . ولكنني عاهدت نفسي على أن أحفظ حُرمة ذلك المأوى الذي أودعت فيه جثمان زوجي ، وشاهدت فيه نمو مبادئ . فسأعود إليه وأصلح حال الأسرة التي هبطت عليه ، وسأذكركم ما حييت ، فاذكروني

أنتم ما حيتتم . وليجمعنا الصراع في سبيل المثل العليا في كل لحظة من لحظات حياتنا . وليكن ذكرنا اشتراكنا في الجهاد مبعث قوة ونشاط لنا . أمهيئون أنفسكم للعمل ؟ فصاحوا جميعاً بصوت واحد : نعم . فقلت : إذن هيا وانبعثوا في الأرض .
ويا لها من لحظة رهيبة أخذت فيها أقبل الأعداء واحداً واحداً قبل أن يسلك كل سبيله في الأرض . ولما جاء دور الزعيم وقعت عيناى على عينيه ووقفنا لحظات لا تريمنا عن مركزهما . فرأيت في عينيه مستقبل آمالى وأحلامى ، بعد أن كنت أرى فيهما شهوة نفسى . وكان الزعيم آخر من شيعت ورأسى مرفوع ، وقابى مطمئن ، ونفسى راضية .

ثم جمعت نشاطى ويممت شطر المأوى ، وفى نفسى نعمة ما فتئت تتردد حتى بلغته . تلك هى : إلى اللقاء ... إلى اللقاء ...

بعد ذلك بـ ٢٠ سنة يقام هذا
الكتاب
عن يد الكاتب



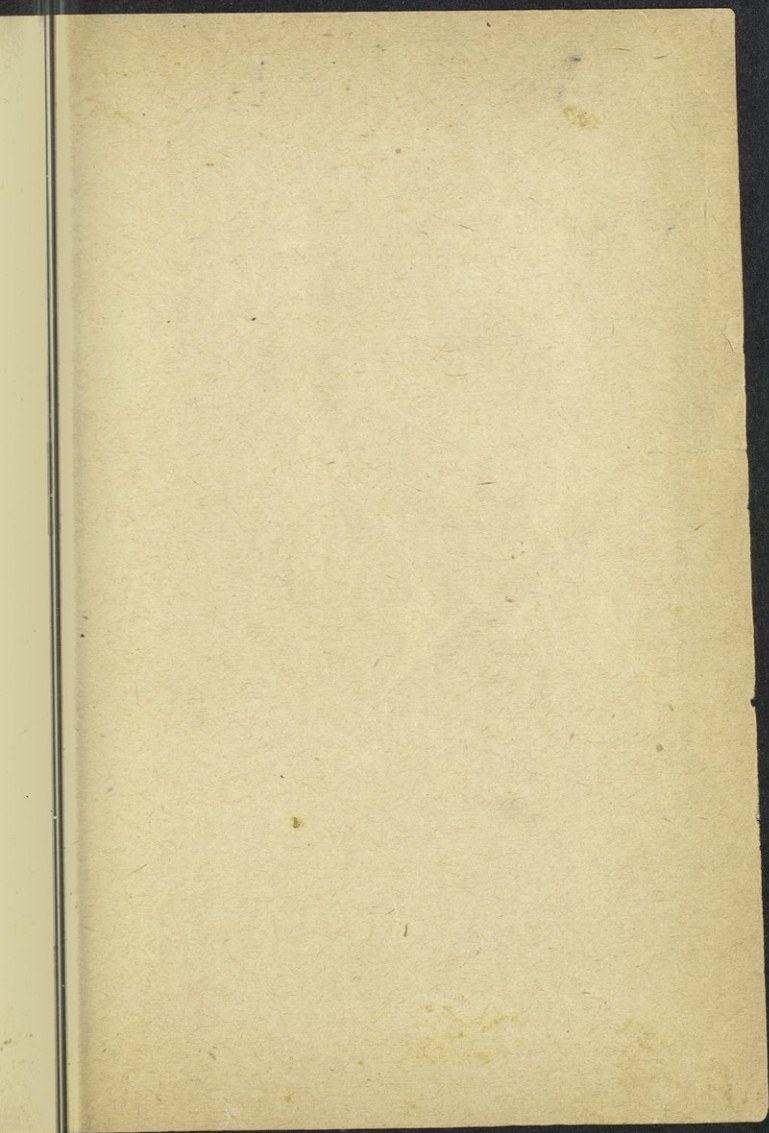
مؤلفات صديقة :

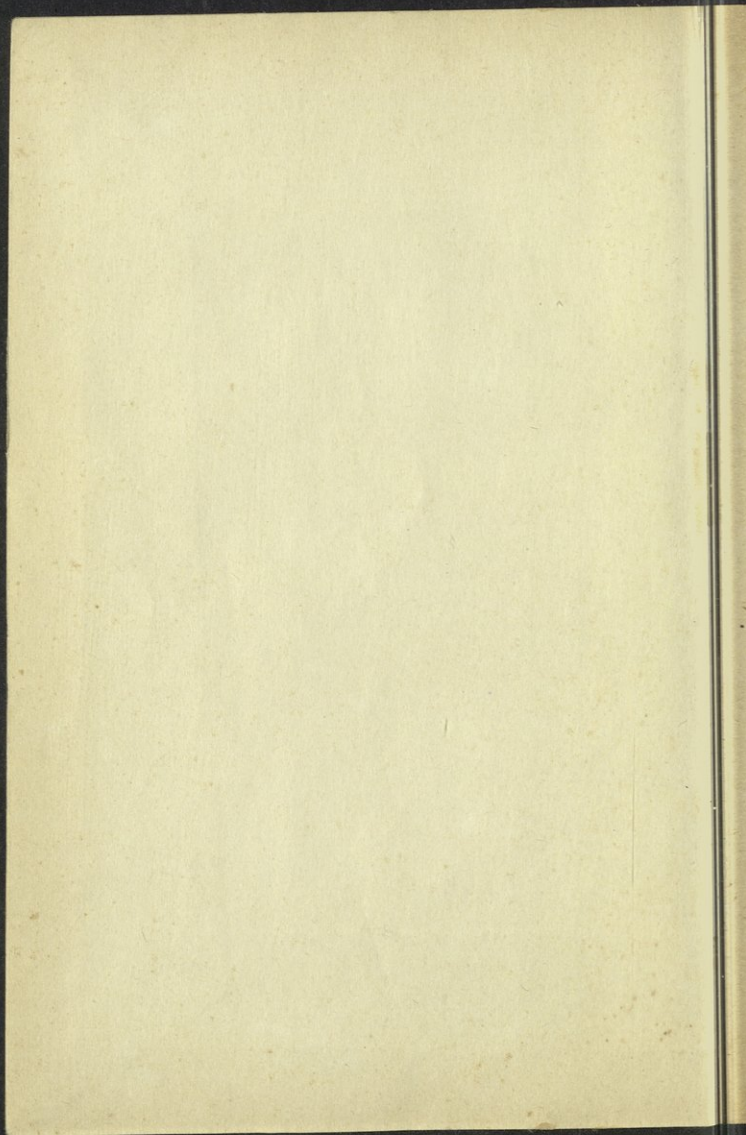
٨٥	بلادى	بقلم الأميرة شيوه كار
٢٥	ديوان المفضليات الجزء الثانى للاستاذين	{ الشيخ أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون
١٨	أوراق الخريف	بقلم السيدة أمينة السعيد
٢٥	الخطايا السبع	» الأستاذ على أدهم
٢٠	شباب الفولجا	» » أحمد الصاوى محمد
٢٥	رجال ونساء	» » أحمد الصاوى محمد
١٥	ميدو وشركاه	» » ابراهيم عبدالقادر المازنى

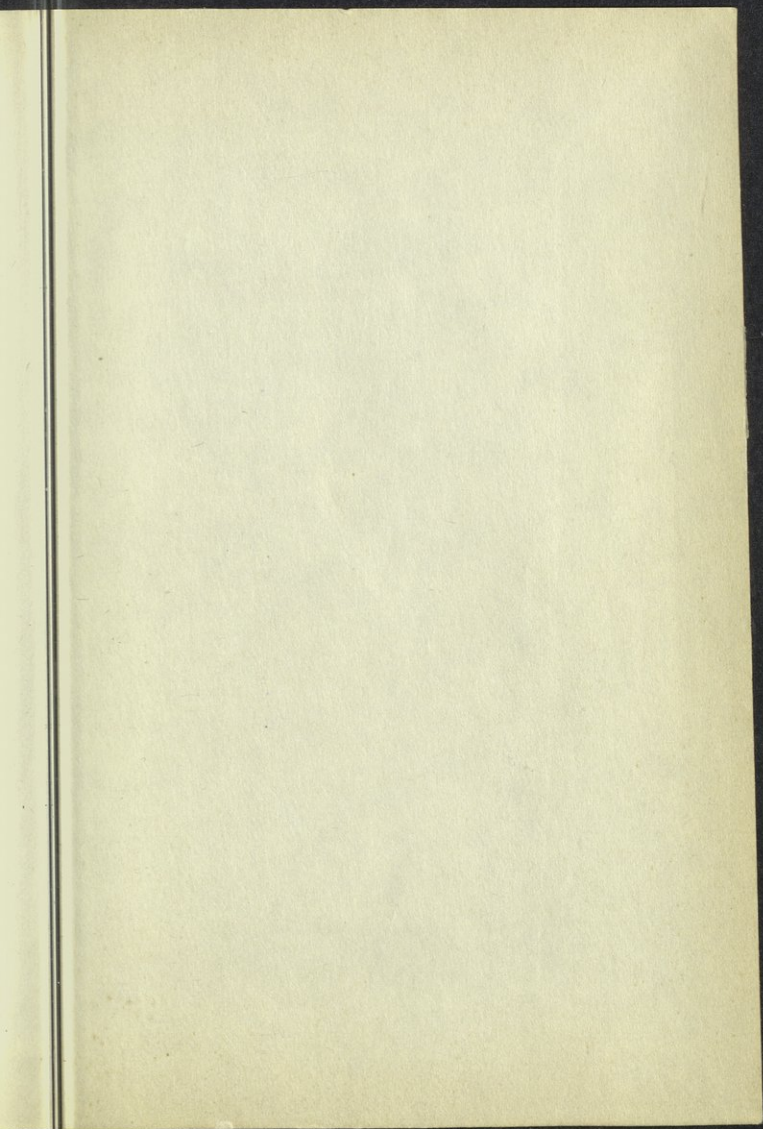
الناشر

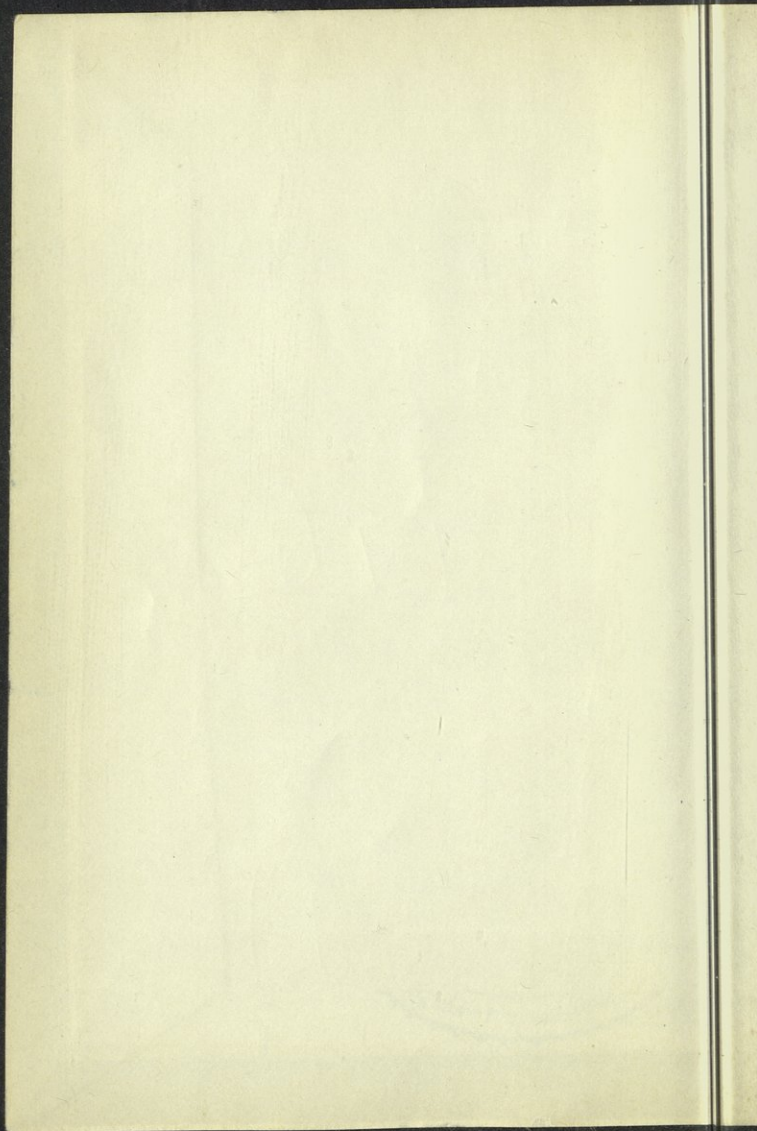
مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

٧٠	شارع الفجالة	:	المحل الرئيسى بالقاهرة
٢	ميدان محمد على	:	فرع الاسكندرية
	شارع مأمن الله بالقدس	:	وكالة فلسطين وشرق الأردن

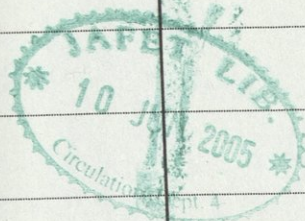








DATE DUE



حسين، طه
مذكرات دجاجة

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01041491

